البحث الرابع والعشرون

التصوف الإسلامى
وموقف خصومه منه

إعداد

محمد رشدى إبراهيم

مدرس العقيدة والفلسفة فى الكلية

لجنة التحكيم

أ.د / **سمير حامد محمد عبد العال** عضو اللجنة المحكمة

أ.د / **على حسن محمد** عضو اللجنة المحكمة

شبهات أثيرت حول التصوف والرد عليها

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك لـه، ولى الـصالحين ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم .

وبعد ...

على ساحة الفكر الإسلامى تبرز اليوم ـ وبقوة ـ قضية التصوف الإسلامى بين مؤيـد يستميت فى الدفاع عنها ويغالى فى تقدير أصحابها بشكل يجعلهم فوق البشر ، وآخرين يرفـضون التصوف وينظرون إليه نظرة دونية ، ويتهمون أصحابه بالخزعبلات والخرافات ، ويذمون طرقهم وأساليبهم فى التنسك والعبادة ، بل ربما وصفوهم بالمروق من الدين والبعد عن الكتاب والسنة ، وسيرة الصحابة والتابعين .

وبين غلو المغالين واتهام المفكرين تضيع الحقيقة .

ولهذا أقدمت على هذا البحث محاولاً أن أضع القضية فى مكانها الـصحيح مبينـاً مـا للتصوف وما عليه ، دون ميل إلى هذا أو ذاك .

ولقد ذكرت فى هذا البحث بعض خصوم التصوف ممن وقفت عليهم.

وجعلته بعنوان " التصوف الإسلامى وموقف خصومه منه" وقـسمته إلى : مقدمـة ، وثلاثة مباحث . وخاتمة .

المقدمة : ذكرت فيها أهمية الموضوع وسبب اختيارى له .

ومحتويات البحث .

المبحث الأول : التعريف بالتصوف والصوفية .

المبحث الثاني : التصوف والصوفية من وجهة نظر الخصوم .

المبحث الثالث : شبهات أثيرت حول التصوف والرد عليها .

الخاتمة : ذكرت فيها أهم ما عرضته فى البحث .

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم ، وأن ينفع به، وأن يكون قد سد فراغاً فى المكتبة الإسلامية .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

د/ محمد رشدى إبراهيم

مدرس العقيدة والفلسفة

بكلية البنات الإسلامية بأسيوط

المبحث الأول

التعريف بالتصوف والصوفية

التعريف بكلمة " تصوف "

أولاً : اشتقاق كلمة " تصوف " :

تعددت آراء العلماء من مؤرخي التصوف الإسلامي حول اشتقاق كلمة "تصوف" ، ومن أهم الآراء القديمة التي ذكرت حول اشتقاق هذه الكلمة ما يلي :

١- قيل : إن التصوف ينتسب إلى العصر الجاهلي ، إذ يرى أصحاب هذا الرأي أن هناك أقواماً نشأوا وقد تعلقوا بالزهد والتعبد ، وتخلوا عن الدنيا وانقطعوا إلى العبادة ، واتخذوا في ذلك طريقة تفردوا بها ، وأخلاقاً تخلقوا بها ، ورأوا أن أول من انفرد به بخدمة الله سبحانه وتعالي عند بيته الحرام رجل يسمى الغوث بن مر ، وكان يعرف باسم صوفة ، أطلقته أمه عليه لأنه لم يكن يعيش لها ولد فندرت لئن عاش لتعلقن برأسه صوفة ولتجعلنه ربيط الكعبة ، ففعلت فقيل له ولولده من بعده صوفة [١] . وأطلق على الذين كانوا يشبهونه من حيث العبادة والزهد الصوفية .

أو نسبة إلى صوفة بن أدّ بن طابخة الذي كان ينتسب إلى قبيلة من العرب كانوا يجاورون بمكة من قديم الزمان ، وينتسب إليهم النساك . [٢]

٢- وقيل : إن التصوف منسوب إلى أهل الصُفة ، وهم قوم من فقراء المسلمين المعوزين الذين أقعدتهم ظروفهم عن السعي والكسب ، وكانوا يعيشون على الصدقات ، وما لهم أهل ولا مال ، فبُنيت لهم صُفة . أي مكان في مؤخرة مسجد رسول الله ﷺ وأطلق عليهم أهل الصُفة . [٣]

---

[١] – تلبيس إبليس – أبو الفرج بن الجوزى – تحقيق / صلاح عويضة – ص- ١٤٥ ، ١٤٦ – ط دار المنار بالقاهرة ، ودار فياض بالمنصورة – الطبعة الثانية – ١٤١٩ هـ – ١٩٩٩ م .

[٢] – مجموع فتاوى ابن تيمية – المجلد الحادي عشر – ص- ٦ – الناشر / دار التقوى للنشر والتوزيع– بلبيس – الشرقية – مصر .

[٣] – تلبيس إبليس – ابن الجوزى – ص- ١٤٦ . وانظر تاريخ التصوف في الإسلام – د/قاسم غني – ترجمه عن الفارسية / صادق نشأت – ص- ٦٠ – مكتبة النهضة المصرية .

٣- وقيل : إنها مشتقة من الصفو بمعنى الصفاء ، أي صفاء القلوب لربها ، وصفاء النفوس لخالقها ، وصفاء الأرواح لأصلها . [٤]

ومن ذلك قول أبي الفتح البُستي:

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا قدماً وظنوه مشتقاً من الصوف
ولست أنحل هذا الاسم غير فتى صافى فصوفي حتى لقب الصوفي[٥]

٤- وقيل : إنها مشتقة من الصِفة . [٦] لاتصافهم – أي الصوفية – بالصفات المحمودة ، وتركهم للصفات المذمومة .

٥- وقيل : إنها مشتقة من الصف : لأن الصوفية في الصف الأول بين يدي الله عز وجل بارتفاع همهم إليه ، وإقبالهم بقلوبهم عليه ، ووقوفهم بسرائرهم بين يديه . [٧]

٦- وقيل : إنها مشتقة من الصوفانة أو الصفوانة ، وهي بقلة رعناء قصيرة تنبت في الصحراء فنسبوا إليها لاجتزائهم بنبات الصحراء . [٨] فكأن الصوفية يجتزءون بالقليل من متاع الدنيا .

---

[٤]- مدخل إلى التصوف الإسلامي- د / أبو الوفا الغنيمي التفتازاني- ص- ٢١ - دار الثقافة للنشر والتوزيع – الطبعة الثالثة ، وانظر التصوف والطريق إليه – عبد الرازق نوفل- ص- ١٤- ط الشعب – الطبعة الأولى .

[٥]-الحياة الروحية في الإسلام- د / محمد مصطفى حلمي – ص- ١٠٨،١٠٩- الهيئة المصرية العامة للكتاب – الطبعة الثانية – ١٩٨٤ م .

[٦]- مدخل إلى التصوف الإسلامي- د/ أبو الوفا الغنيمي التفتازاني- ص- ٢١ .

[٧]- التعرف لمذهب أهل التصوف- أبو بكر محمد بن إسحاق البخاري الكلاباذي- تحقيق / محمود أمين النواوي- ص- ٢٨، ٢٩- الناشر / مكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة- الطبعة الثانية – ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م .

[٨] – دائرة المعارف الإسلامية – إعداد وتحرير / إبراهيم زكي خورشيد وآخرون- المجلد التاسع – مادة تصوف – ص-٣٢٨- ط الشعب بالقاهرة ، وانظر تاريخ التصوف في الإسلام د / قاسم غني – ص- ٦١، وانظر تاريخ التصوف الإسلامي من البداية حتى نهاية القرن الثاني – د / عبد الرحمن بدوي- ص ٩- الناشر/ وكالة المطبوعات – الكويت- الطبعة الثانية ١٩٧٨ م .

٧- وقيل : إنها منسوبة إلى " صوفة القفا " وهي الشعر النابت والمجتمع في مؤخرة الرأس .[٩] فكأن الصوفي عطف به إلى الحق وصرفه عن الخلق .[١٠]

٨- وقيل : إنها منسوبة إلى كلمة " سوفيا " اليونانية .[١١] والتي تعني الحكمة ، فكأن الصوفية يحاولون الوصول إلى التحلي بالحكمة .

٩- وقيل : " إن الظاهر في هذا الاسم أنه لقب ، إذ لا يشهد له اشتقاق من جهة العربية ولا قياس ".[١٢]

١٠- وقيل : إنها مشتقة من الصوف ، فإنما سموا صوفية للبسهم الصوف .[١٣] ولذلك يقال : تصوف إذا لبس الصوف ، كما يقال : تقمص إذا لبس القميص.

هذه هي أبرز الآراء القديمة التي ذكرت في اشتقاق كلمة " تصوف " ، وهذه الآراء وإن كانت متقاربة من ناحية المعنى ، وجاز اشتقاقها من هذه الناحية ، إلا أنه لا يجوز اشتقاقها من ناحية اللفظ اللغوي ، وإن جاز اشتقاق بعضها فإن ذلك فيه ضعف .

وحتى يتبين لنا الصواب في هذه الآراء ، ينبغي أن نقف وقفة قصيرة عند كل منها :

فمن قال : إن الصوفية تنتسب إلى العصر الجاهلي ، ونسبهم إلى صوفة "الغوث بن مر" أو صوفة بن أد بن طابخة فإن هذا الرأي وإن كان موافقاً للنسب من جهة اللفظ ، إلا أنه " رأي

---

٩ - دائرة المعارف الإسلامية- المجلد التاسع - مادة تصوف- ص- ٣٢٨ ، وانظر الصوفية معتقداً أو مسلكاً - صابر طعيمة - ص- ٢١ - الطبعة الثانية - الرياض - ١٩٨٥ م .

١٠ - تاريخ التصوف في الإسلام - د / قاسم غني - ص- ٦١ .

١١ - للرجوع إلى هذا الرأي انظر كتاب : تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة - لأبي الريحان محمد بن أحمد البيروني - ص- ٢٧ - ط عالم الكتب - بيروت - الطبعة الثانية - ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م .

١٢ - الحياة الروحية في الإسلام - د / محمد مصطفى حلمي - ص- ١٠٥ .

١٣ - التعرف لمذهب أهل التصوف - الكلاباذي - ص- ٢٩ .

يصعب الأخذ به لسذاجته " . [١٤]

كما أنه رأي ضعيف ، لأن هؤلاء الذين كانوا يعيشون في العصر الجاهلي لم يكونوا مشهورين ولا معروفين عند أكثر النساك والزهاد ، ولأنه لو نسب كلاً من النساك والزهاد إلى هؤلاء لكان هذا النسب في زمن الصحابة والتابعين ومن تبعهم أولى ، ولأن معظم من تكلم باسم " الصوفي " لا يعرف هؤلاء ولا يرضي أن يكون مضافاً إلى قبيلة في الجاهلية لا وجود لها في الإسلام . [١٥] كما أن كلمة تصوف لم تشتهر على ألسنة الناس في هذا العصر .

وأما من قال : إن التصوف منسوب إلى أهل الصُفة ، وهذا الرأي وإن كان جائزاً من ناحية المعنى ، إذ يظهرنا على مبلغ الملاءمة بين الحياة التي كان يحياها أهل الصُفة والحياة التي يحياها الزهاد والنساك من الصوفية فيما أخذ به أولئك وهؤلاء أنفسهم من زهد في الدنيا ، وعكوف على العبادة ، وانقطاع إلى الله تعالى ، فهو من هذه الوجهة مستقيم مع طبيعة الحياتين ، ولكنه مع ذلك لا يصلح من الوجهة اللغوية ، إذ النسبة إلى الصفة هي صُفّي لا صوفي . [١٦] فلو كان الصوفية ينسبون إلى أهل الصفة لسموا بالصفية .

وأما من قال : إن التصوف مشتق من الصفو أو الصفاء فذلك صحيح من الناحية المعنوية ولكنه فاسد من الناحية اللفظية ، إذ هو على الرغم من انطوائه على معنى الصفاء الذي يتهيأ لقلب الصوفي ، والذي ينشده الصوفية ويعملون على التحلي به ، فإنه لا يتمشى بحال مع أبسط قواعد الاشتقاق اللغوي ، لأن النسبة إلى الصفو والصفاء هي صفوي أو صفائي لا صوفي . [١٧]

---

[١٤] – إسلام بلا مذاهب – د / مصطفى الشكعة – ص ٥٠٤ – ط الدار المصرية اللبنانية الصادرة عن مكتبة الأسرة – تنفيذ / الهيئة المصرية العامة للكتاب .

[١٥] – مجموع فتاوي ابن تيمية – المجلد الحادي عشر – ص ٦ .

[١٦] –الحياة الروحية في الإسلام – د / محمد مصطفى حلمي – ص ١٠٦ .

[١٧] – المرجع السابق – ص ١٠٥ ، وانظر التصوف الثورة الروحية في الإسلام – د/ أبو العلا عفيفي – ص ٣٣ – ط دار المعارف – الطبعة الأولى – ١٩٦٣ م .

وأما من قال : إن التصوف مشتق من الصفة استناداً إلى ما ينطوي عليه التصوف وما يتصف به الصوفية من الصفات الحميدة ، فهذا وإن كان جائزاً من ناحية المعنى فإنه لا يجوز من الناحية اللغوية ، لأن النسبة إلى الصفة هي صفتي لا صوفي . [١٨]

وأما من قال : إن التصوف مشتق من الصف ، وهذا وإن جاز من الناحية المعنوية ، فكأن الصوفية في الصف الأول بقلوبهم بين يدي الله عز وجل ، إلا إنه لا يجوز من الناحية اللغوية ، إذ النسبة إلى الصف هي صفّيّ لا صوفي . [١٩]

وأما من قال : إن التصوف مشتق من الصوفانة أو الصفوانة التي هي نبت في الصحراء ، فإنه يجوز من ناحية المعنى لما فيه من معنى الزهد والإقلال من الطعام الذي ينطوي عليه التصوف ، لما في ذلك من المناسبة بينه وبين اقتصار الصوفية على ما يجرى مجرى الصوفان في قلة الغذاء ، إلا أنه لا يصح من الناحية اللغوية ، لأن النسبة إلى الصوفانة هي صوفاني لا صوفي.[٢٠]

وأما من قال : إن التصوف مشتق من صوفة القفا ؛ فإن هذا الرأي غير مقبول ، ومن علل لهذه التسمية لم يعلل تعليلا مقبولاً .

وأما من قال : إن التصوف منسوب إلى كلمة " سوفيا " والتي معناها الحكمة ، ثم أخذت شكلاً عربياً فصارت " صوفية " ، فهذا غير جائز ، لأن الفلسفة عند اليونان القدماء كانت تهتم بالعلوم الطبيعة ، وكان كثير من فلاسفتهم أطباء ، وقد ترجمها العرب فسموا الطب الحكمة ، كما أن كلمة حكيم ما زالت تؤدي معنى كلمة طبيب ، والفلسفة نفسها سماها العرب الحكمة ، وقالوا تاريخ الحكماء ، فهم عرفوا من " سوفيا " الفلسفة والطب ، أما الحكمة الروحانية فمن البعيد أن يكونوا لمحوها لأنهم كانوا يرون اليونان من عبدة الأوثان . [٢١]

---

١٨ - الحياة الروحية في الإسلام- ص- ١٠٦ .

١٩ - فتاوى ابن تيمية - المجلد الحادي عشر - ص- ٦ ، وانظر الحياة الروحية في الإسلام - د / محمد مصطفى حلمي - ص- ١٠٥ .

٢٠ - الحياة الروحية في الإسلام - د / محمد مصطفى حلمي - ص- ١٠٦ ، وانظر تاريخ التصوف في الإسلام - د / قاسم غني - ص- ٦١ .

٢١ - التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق - د / زكي مبارك - ح-١ - ص- ٥٤ ـ المكتبة العصرية للطباعة والنشر- صيدا- بيروت - لبنان .

وما الذي يمنع من أن تكون " سوفيا " بمعنى الحكمة الروحانية مأخوذة من كلمة " صوف " وهي قديمة في العربية ؟ إن التصوف قديم جداً عند العرب ، وهو أساس المسيحية ، ولبس الصوف كان علامة التقشف ، فليس من المستبعد أن ترحل كلمة " صوف " إلى معابد اليونان . ولا يفوتنا أن نذكر أن العرب كانوا مولعين بحفظ ما يدخل لغتهم من الألفاظ الأجنبية ، ولو كان " التصوف " مأخوذاً من " سوفيا " اليونانية لنصوا عليه في كثير من المؤلفات : [٢٢]

ومما يدل على خطأ هذا الزعم كذلك : " أن السين اليونانية تكتب باطراد في العربية سيناً لا صاداً ، وأن ليس في اللغة الآرامية كلمة متوسطة للانتقال من "سوفوس " اليونانية إلى " صوفي" العربية " . [٢٣]

فلو صح أن التصوف مأخوذ من سوفيا اليونانية لكان يطلق على أتباعه سوفية لا صوفية .

ومن رأى أنها " أخذت شكلاً عربياً فصارت صوفية فهذا تعليل خاطئ في منطقه يستهدف نسبة الكثير من المبادئ والقضايا والمسميات العربية الأصيلة إلى منبع أجنبي ". [٢٤]

وهناك فرق كبير بين التصوف الذي يشتمل على التعبد والزهد والرياضة والمجاهدة والذوق والمشاهدة والمكاشفة ، وبين الفلسفة التي تشتمل على النظر العقلي والاستدلال المنطقي .

ومما يدل على عدم قبول هذا الرأي أيضاً : " أن التسمية بالصوفي كانت موجودة قبل ترجمة الحكمة اليونانية إلى اللغة العربية " . [٢٥]

وأما من قال : إن هذا الاسم لقب ، إذ لا يشهد له اشتقاق أو قياس من جهة العربية ، فهو رأي يدحضه الرأي القائل : إن الصوفي نسبة إلى الصوف ، لأن لباس الصوف كان يكثر في

---

[٢٢] – المرجع السابق – ح-١ – ص- ٥٤ ، ٥٥.

[٢٣] – دائرة المعارف الإسلامية – المجلد التاسع – مادة تصوف – ص- ٣٢٨ .

[٢٤] – إسلام بلا م ذاهب – د / مصطفى الشكعة – ص- ٥٠٣ .

[٢٥] – المنقذ من الضلال – للإمام الغزالي – مع أبحاث في التصوف ، ودراسات عن الإمام الغزالي – بقلم د / عبد الحليم محمود – ص- ١٧ – دار الكتب الحديثة – مطبعة حسان – الطبعة الثامنة ١٣٩٤ هـ – ١٩٧٤ م .

الزهاد فضلاً عما في ذلك من وجه سائغ في الاشتقاق ، وهذا هو الذي ذهب إليه كبار العلماء من الصوفية وغير الصوفية [٢٦]

إذن فنسبة التصوف إلى لبس الصوف جائزة من ناحية المعنى ، ومن ناحية الاشتقاق اللغوي ، كما أنها تحظى بالقبول والترجيح عند معظم العلماء .[٢٧]

فأما من ناحية المعنى فإن الصوف وإن كان اليوم لباس الأغنياء ويدل على الترف فإنه في الماضي كان لباس الفقراء والزهاد والعباد " فلبس الصوف كان علامة الزاهدين وأمارة العابدين .. وذلك على مر الأزمان " [٢٨].

" ولبس الصوف يحمل بدون شك معنى التقشف والتواضع والبعد عن الزهو وتمثل الفقر إلى الله سبحانه ، ومن ثمّ فإن الزهاد والنساك الذين جعلوا حياتهم سعياً في مسالك الطريق إلى الله يبتغون رضاه وينشدون محبته ويعشقون كماله ويفنون في جلاله قد ارتضوا لأنفسهم هذه التسمية ، وأطلقوها عن رضى واقتناع ".[٢٩]

وأما من ناحية الاشتقاق اللغوي فإنه يلائم ويناسب من حيث الاشتقاق اللغوي ، إذ يقال : تصوف إلى لبس الصوف ، كما يقال تقمص إذا لبس القميص. كما أن النسبة إلى الصوف هي صوفي .

وأما عن تأييد كبار العلماء من الصوفية وغير الصوفية وترجيحهم للرأي القائل بأن التصوف نسبة إلى لباس الصوف ، فأذكر ما ذكره صاحب كتاب : "اللمع" إذ يقول :

إن سأل سائل فقال : قد نسبت أصحاب الحديث إلى الحديث ، ونسبت الفقهاء إلى الفقه فلِمَ قلت : الصوفية ولم تنسبهم إلى شيء بعينه ؟... فيقال له : لأن الصوفية لم ينفردوا بعلم دون علم ، ولم يترسموا برسم من الأحوال والمقامات دون رسم ، فهم معدن جميع العلوم ومحل جميع الأحوال المحمودة ، والأخلاق الشريفة ... ولكن أضفتهم إلى ظاهر اللبسة ، لأن لباس الصوف

---

[٢٦] – الحياة الروحية في الإسلام – د / محمد مصطفى حلمي – ص ١٠٧ .

[٢٧] – المقصود بلبس الصوف ضرب المثل بخشونة الحياة التي يحياها الصوفي متقشفاً زاهداً في الدنيا وليس المقصود الصوف لذاته فقد غدا لبس الصوف اليوم حلية للأغنياء وارتفعت أثمانه بشكل واضح .

[٢٨] – التصوف والطريق إليه – عبد الرازق نوفل – ص ١٤ .

[٢٩] – إسلام بلا مذهب – د / مصطفى الشكعة – ص ٥٠٥ .

دأب الأنبياء عليهم السلام وشعار الأولياء والأصفياء .. فلما أضفتهم إلى ظاهر اللبسة كان ذلك اسماً مجملاً عاماً مخبراً عن جميع العلوم والأعمال والأخلاق والأحوال الشريفة المحمودة .[٣٠]

فالصوفية في نظر صاحب كتاب "اللمع" إنما سموا بهذا الاسم نسبة إلى لباسهم – الصوف – الذي اتخذوا منه شعاراً أو رمزاً .

وكذلك ما ذكره ابن خلدون [٣١] إذ يقول : " والأظهر إن قيل بالاشتقاق أنه من الصوف وهم في الغالب مختصون بلبسه لما كانوا عليه من مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب إلى لبس الصوف " .[٣٢]

ولم يكن لبس الصوف بمانع من ارتداء الثياب الناعم ، إذ القوم استحسنوه ورضوا به وجعلوه علامة للتقشف والزهد .

ثم إن الصوف كان لباس الأنبياء والصديقين وزي الأولياء . . . فلقد ذكر الحسن البصري [٣٣] : أن عيسى – عليه السلام – كان يلبس الشعر ويأكل من الشجر ، ويبيت حيث أمسى . [٣٤]

ولقد ورد أن النبي ﷺ لبس جبة من الصوف وهو في السفر . [٣٥]

---

٣٠ – اللمع – لأبي نصر السّراج الطوسي – تحقيق د / عبد الحليم محمود ، طه عبد الباقي سرور – ص ٤٠، ٤١ الناشر دار الكتب الحديثة بمصر ، ومكتبة المثنى ببغداد – ط مطبعة السعادة بمصر – ١٣٨٠ هـ – ١٩٦٠ م .

٣١ – ابن خلدون : هو عبد الرحمن بن محمد خلدون الحضري الفيلسوف والمؤرخ الأندلسي الأصل ، ولد في تونس سنة ٧٣٢ هـ ونشأ بها ، له مؤلفات كثيرة منها : العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العجم والبربر ، والمقدمة ، وتوفي بالقاهرة سنة ٨٠٨ هـ – انظر الموسوعة الصوفية – د/ عبد المنعم الحفني – ص ١٤٤ – ط دار الرشاد – القاهرة – الطبعة الأولى – ١٤١٢هـ – ١٩٩٢ م .

٣٢ – مقدمه ابن خلدون – للعلامة عبد الرحمن بن محمد بن خلدون– ص ٤٦٧ – دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان .

٣٣ – الحسن البصرى : هو أبو على الحسن بن أبي الحسن البصرى ، ولد بالمدينة سنة ٢١هـ وقيل ٢٢ هـ ، وكان من كبار الزهاد والنساك والعباد من التابعين ، توفى سنة ١١٠هـ.

٣٤ – التعرف لمذهب أهل التصوف – الكلاباذي – ص ٣١ .

٣٥ – انظر صحيح البخاري – كتاب اللباس – باب لبس جبة الصوف في الغزو – ج ٥ – ص ١٨٢ – دار ابن كثير – اليمامة – بيروت – ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م

ولبسه كثير من الصحابة ، فلقد ورد أن سلمان الفارسي كان يلبس الصوف ، كما كان أبو عبيدة بن الجراح يلبس الصوف أيضاً ، وحافظ المسلمون على هذا اللباس.[٣٦]

" وقال الحسن البصري : لقد أدركت سبعين بدرياً ما كان لباسهم إلا الصوف " .[٣٧]

فالقول بأن التصوف مشتق من الصوف هو أرجح الأقوال ، وأقربها إلى العقل والمنطق .

وإذا كانت تلك هي آراء القدماء حول اشتقاق كلمة " تصوف " فما هو رأي الباحثين الحديثين في أصلها ؟

يقول رينيه جينو أو الشيخ عبد الواحد يحيي [٣٨]عن كلمة " التصوف " : إنها في الحقيقة تسمية رمزية ، وإذا أردنا تفسيرها ينبغي علينا أن نرجع إلى القيمة العددية لحروف " صوفي " تماثل القيمة العددية لحروف : " الحكمة الإلهية " فيكون الصوفي الحقيقي هو الرجل الذي وصل إلى الحكمة الإلهية ، إنه العارف بالله ، إذ إن الله لا يعرف إلا به ، وتلك هي الدرجة العظمى " الكلية " فيما يتعلق بمعرفة الحقيقة . [٣٩]

ويري فضيلة الأستاذ الدكتور / عبد الحليم محمود أن الشيخ عبد الواحد يحيي قد انفرد بهذا الرأي ، وهو رأي لا يمكن أن ينقض بالأدلة المنطقية ، كما أنه لا يمكن أيضاً أن يؤيد بالأدلة المنطقية ، إذ يستسيغه قوم دون برهان ، وينفر منه آخرون بدون حجة .[٤٠]

---

٣٦ – مروج الذهب ومعادن الجوهر – المسعودى أبو الحسن على بن الحسين – ج- ٢ – ص- ٣١٥ – ط الأستاذ / محي الدين عبد الحميد – القاهرة – ١٩٥٨ م .

٣٧ – التعرف لمذهب أهل التصوف – الكلاباذي – ص- ٣١ .

٣٨ – رينيه جينو : ولد فى بلدة بلوا الفرنسية فى ١٥ نوفمبر ١٨٨٦م من أسرة كاثوليكية ذات يسر ورخاء ، اعتنق الإسلام سنة ١٩١٢م وتسمى باسم الشيخ عبد الواحد يحيى ، سافر إلى مصر فى ٢٠ فبراير ١٩٣٠م ليتصل بالثقافة الصوفية ، والتقى بالدكتور عبد الحليم محمود ، مات فى ٧ يناير ١٩٥١م ، انظر الفيلسوف المسلم رينيه جينوا وعبد الواحد يحى ـــ د/ عبد الحليم محمود ـــ ص٣٥ ، مكتبة الأنجلو المصرية ـــ ط مطبعة لجنة البيان العربى ـــ القاهرة .

٣٩ – الفيلسوف المسلم رينيه جنيو أو عبد الواحد يحيي – د / عبد الحليم محمود – ص- ١٠٢ ، ١٠٣ ، وانظر المنقذ من الضلال ـــ ص ١٧٢ .

٤٠ – المنقذ من الضلال – ص- ١٧٢ .

وإذا تركنا الشيخ عبد الواحد يحيى لننظر إلى آراء غيره من الباحثين المحدثين في هذه اللفظة فإننا نجدهم – كما يذكر الدكتور / عبد الحليم محمود – ينقسمون إلى فريقين لا ثالث لهما:

فريق منهم يجاري أبا الريحان البيروني في قوله بأن هذه اللفظة مأخوذة عن كلمة " سوفيا " اليونانية .

وقد قال بهذا الرأي : " فون هامر "[41] من المستشرقين ، واعتنقه كثير من الباحثين والأساتذة . وأيده بقوة الأستاذ / محمد لطفي جمعة . والذي جعلهم ينصرفون عن نسبة الكلمة إلى الصوف ، هو أنهم يعتقدون أن نسبتها إلى الصوف تبعد الصوفية عن الحكمة الإلهية وتنسبها إلى الظاهر والشكل[42].

وقد تحدثنا عن هذا الرأي وبينا بطلانه وعدم صحته .

أما الفريق الثاني من الباحثين المحدثين فقد رأى أن كلمة " تصوف " مأخوذة من " الصوف " – وهذا الفريق يمثل الأغلبية – ومن أبرز القائلين بهذا الرأي – كما ذكر فضيلة الأستاذ الدكتور / عبد الحليم محمود – المرحوم الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق ، والمرحوم الدكتور / زكي مبارك ، والمستشرق مرجليوث [43]. وقد أيد الأستاذ الدكتور / عبد الحليم محمود رأي هذا الفريق موضحاً أن الاشتقاق اللغوي يؤيد هذا الرأي : فكما أنه يقال : تقمص إذا لبس القميص ، يقال كذلك : تصوف إذا لبس الصوف [44].

---

[41] – فون هامر : مستشرق نمساوي ولد في جراتس في ٩ يونيو ١٧٧٤م ، تعلم بعض اللغات الشرقية : كالتركية والعربية والفارسية وعمل ترجماناً في استنابول ومصر وفي سنة ١٨٤٧م اختير رئيساً لأكاديمية فينا وله أكثر من مائة مؤلف ، توفى سنة ١٨٥٦م. انظر موسوعة المستشرقين – د / عبد الرحمن بدوي – ص٦١٣ وما بعدها – ط دار العلم للملايين .

[42] – المنقذ من الضلال – ص ١٧٢ ، ١٧٣.

[43] – مرجليوث : هو دافيد صموئيل مرجليوث ، مستشرق إنجليزي ولد سنة ١٨٥٨م ، وكان أستاذاً بجامعة أكسفورد ، واتصل بكثير من أدباء العرب ، وله بحوث ودراسات عن الإسلام ، وتوفى سنة ١٩٤٠م. انظر موسوعة المستشرقين – د / عبد الرحمن بدوي – ص ٥٤٦.

[44] – المنقذ من الضلال – ص ١٧٤.

ثانياً: تعريف التصوف في الاصطلاح :

أما عن تعريف التصوف في الاصطلاح فلقد تعددت تعريفاته ، وتنوعت واختلفت ، وذلك نتيجة لمرور هذه الطائفة بأحوال متعددة ، وبظروف مختلفة ، وكل تعريف من هذه التعريفات قد يشير إلى بعض جوانب التصوف الإسلامي دون البعض ، لما في التصوف الإسلامي من خصال حميدة ومتنوعة ، ومما لاشك فيه أن كثرة التعريفات تدل على شرف العلم وشهرته .

على أن هذه التعريفات بالرغم من تنوعها واختلافها فإنها تتمثل في عدة جوانب وهي :

أ) الجانب الأخلاقي :

يتجه الكثير من العلماء في تعريف التصوف إلى الجانب الأخلاقي ، وهذا الاتجاه شائع عند الصوفية أنفسهم ، وعند غيرهم من الباحثين والمؤرخين له [٤٥] . وذلك باعتباره علماً سلوكياً يهتم بأمر تهذيب النفس الإنسانية ، ومحاولة السمو بها نحو الكمال في آفاق روحية عليا حيث الصفاء والنقاء والطهر [٤٦] .

وهذه بعض الأمثلة لتعريفات التصوف من الجانب الأخلاقي :

١- قال الكتاني[٤٧]:"التصوف خلق،فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الصفاء"[٤٨].

---

٤٥ -المنقذ من الضلال – ص ١٧٧ .

٤٦ – التصوف الإسلامي قضاياه ومشكلاته– د / إبراهيم محمد إبراهيم – ص ٤ – مطبعة الأمانة – شبرا – مصر .

٤٧ – الكتاني : هو أبو بكر محمد بن علي بن جعفر الكتاني ، أصله بغدادي لكنه أقام بمكة ، وقيل عنه : إنه سراج الحرم ، وقد صحب الجنيد ، والخرّاز ، والنوري ، وتوفى بمكة سنة ٣٢٨هـ وقيل : سنة ٣٢٢هـ وهو الصواب . انظر صفة الصفوة – لأبي الفرج بن الجوزي – جـ٢ – ص٢٩٤ دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.

٤٨ – الرسالة القشيرية في علم التصوف – لأبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري – بتحقيق الشيخ / زكريا الأنصاري – ص ٢١٨ – مطبوعات مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده بميدان الأزهر – مصر .

٢- " وسئل أبو محمد الجريري [٤٩] رحمه الله عن التصوف ، فقال : الدخول في كل خُلق سني والخروج من كل خُلق دني " [٥٠]. ٥٢٥١

٣- وسئل محمد بن علي القصّاب [٥٣]، وهو أستاذ الجنيد [٥٤] رحمه الله عن التصوف : ما هو ؟ قال : أخلاق كريمة ظهرت في زمان كريم من رجل كريم مع قوم كرام [٥٥].

هذا هو الجانب الأخلاقي في تعريف التصوف ، وهذا الجانب لا يستطيع أن يعبر عن التصوف تعبيراً دقيقاً .

" لأننا لو نظرنا إلى كثير من الأشخاص الذين اشتهروا بالسمو ، في الجانب الأخلاقي الكريم ، واتصفوا بأروع الصفات الأخلاقية ، واتخذوا الفضيلة مذهباً وشعاراً ، فإننا نجدهم أشخاصاً مثاليين في المحيط الأخلاقي ، وفي المجتمع . ولكن ليس معنى ذلك أنهم ، لا محالة ، من الصوفية " [٥٦].

---

٤٩ - أبو محمد الجريري : هو أبو محمد الجريري ، واسمه أحمد بن محمد بن الحسين ، وقد أسند الحديث ، وهو من كبار أصحاب الجنيد ، وصحب سهل بن عبد الله ، وتوفى رحمه الله سنة ٣١١هـ . انظر صفة الصفوة - ابن الجوزي - ج-٢ - ص ٢٨٨ ،٢٨٩ .

٥٠ - اللمع - الطوسي - ص ٤٥ - . وانظر الرسالة القشيرية - ص ٢١٧ .

١- القصّاب : هو محمد بن علي أبو جعفر القصّاب ، بغدادي ، وكان أستاذاً للجنيد . يقول الجنيد : " الناس ينسبونني إلى سري - يعني السقطي - وكان أستاذي أبا محمد القصّاب " مات القصّاب سنة ٢٧٥هـ . انظر طبقات الصوفية - أبو عبد الرحمن السلمي - تحقيق / نور الدين شريبة - ص ١٥٥- ط مطبعة المدني - الناشر / مكتبة الخانجي بالقاهرة - الطبعة الثالثة - ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

٥٤- الجنيد : هو الجنيد بن محمد الجنيد ، أبو القاسم الخزاز ، كان خزازاً من نهاوند ، وكان فقيهاً على مذهب أبي ثور ، وكان من كبار الصوفية ، وعرف بسيد الطائفة وطاووس العلماء، توفى سنة ٢٩٧هـ . انظر الموسوعة الفلسفية د/ عبد المنعم الحفنى ـ ص١٥٩ ط دار ابن زيدون ـ بيروت ، ومكتبة مدبولى ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى .

٥٥ - اللمع - الطوسي - ص ٤٥ .

٥٦ - المنقذ من الضلال - ص ١٧٨.

فلا يشترط أن يكون صاحب الأخلاق الكريمة ، أو الشخص ذو السلوك المثالي صوفياً .

ولا أدل على ذلك من أننا " لو نظرنا في البيئة اليونانية لوجدنا داعية إلى الفضيلة ، ومتمذهباً بها ، ومحاولاً نشرها بشتى الوسائل ، وبمختلف الطرق ، سواء كان ذلك بالدعوة الإقناعية ، أو بالمنطق الجدلي ، أو بالأسوة الكريمة ، ذلك هو سقراط ومع ذلك فإن سقراط لم يكن صوفياً بالمعنى الدقيق لكلمة : صوفي " [٥٧].

على أنه من الطبيعي أن تكون الأخلاق الكريمة أساساً من أسس التصوف ، وأن تكون ثمرة للتصوف ، وأن تكون شعار الصوفي ، فيما بين الأساس والثمرة ، فهي إذن ملازمة للتصوف وللصوفي ، ملازمة تامة لا تتخلى عنه ، ولا يتخلى عنها ، ومع ذلك فليست الأخلاق هي التصوف [٥٨].

ب) جانب الزهد :

تعريف التصوف من جانب الزهد يعد اتجاهاً أكثر شيوعاً من الاتجاه السابق.

وهذه بعض الأمثلة لتعريفات التصوف من هذا الجانب :

١- قول معروف الكرخي [٥٩]: التصوف الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق فمن لم يتحقق بالفقر لم يتحقق بالتصوف [٦٠].

٢- قول النوري [٦١]:

---

٥٧ - المرجع السابق – ص- ١٧٨ .

٥٨ - المنقذ من الضلال – ص- ١٧٨ .

٥٩ - معروف الكرخي : هو معروف بن الفيرزان الكرخي ، ويكنى أبا محفوظ ، وهو منسوب إلى كرخ بغداد ، وكان نصرانياً ولكنه دخل دين الإسلام هو وأهله جميعاً ، وتوفى ببغداد سنة ٢٠٠هـ ، وقبره ظاهر ببغداد يُتبرك به . انظر صفة الصفوة – ابن الجوزي – ج-٢ – ص- ٢١٠ وما بعدها .

٦٠ - تاريخ التصوف الإسلامي – د/ عبد الرحمن بدوي – ص- ١٧.

٦١ - النوري : هو أبو الحسين أحمد بن محمد النوري البغدادي ، ويعرف بابن البغوي نسبة إلى قرية بغشور بخراسان ، ولكنه ولد ونشأ ببغداد ، ويقال اسمه النوري نسبة إلى قرية يقال لها نور، أو لنور ، أو حُسن في

التصوف ترك كل حظ للنفس [٦٢].

٣- قول رويم بن أحمد [٦٣]: التصوف مبني على ثلاث خصال : التمسك بالفقر والافتقار ، والتحقق بالبذل والإيثار ، وترك التعرض والاختيار [٦٤].

وبعد أن ذكرنا بعض التعريفات للتصوف من جانب الزهد ، أرى أن هذا الجانب لا يفي بالغرض المطلوب ، فالتصوف ليس زهداً فقط ، ولا يشترط في الزهد أن يكون صوفياً ، وقد يفهم بعض الناس من التصوف أنه زهد ولكن " الزهد في الدنيا شيء ، والتصوف شيء آخر ، ولا يلزم من كون الصوفي زاهداً ، أن يكون التصوف : هو الزهد " [٦٥].

ج) جانب العبادة :

من أهم تعريفات التصوف في جانب العبادة ما يلي :

١. قول رويم بن أحمد رحمه الله لما سُئل عن التصوف : استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريده [٦٦].

٢. قول الشبلي [٦٧]:

وجهه ، وطريقته تسمى النورية ، وقد صحب السري السقطي وابن أبي الحواري والقصّاب ، وأساس طريقته الإيثار ، توفى ببغداد سنة ٢٩٥هـ . الموسوعة الصوفية – د/ عبد المنعم الحفني – ص- ٣٩٧ وما بعدها .

٦٢ – الرسالة القشيرية – ص-٢١٨ .

٦٣ – رويم بن أحمد : هو أبو محمد رويم بن أحمد بن يزيد ، من أهل بغداد ، وهو من صحب الجنيد وتتلمذ على يديه ، وكان فقيهاً ، وله بحوث في التصوف ، توفى سنة ٣٠٣هـ. انظر الموسوعة الصوفية – د/ عبد المنعم الحفني – ص- ١٨٦ ، ١٨٧.

٦٤ – الرسالة القشيرية – ص- ٢١٨ .

٦٥ – المنقذ من الضلال – ص-١٧٩ .

٦٦ – اللمع – الطوسي – ص-٤٥ .

٦٧ – الشبلي : هو أبو بكر دلف بن جحدر ، ، أو ابن جعفر ، ينسب لقرية شبلة من خراسان ، ولد سنة ٢٤٧هـ في بيت عز وجاه ، فكان أبوه حاجب الحجاب للخليفة الموفق وخاله أمير الأمراء بالإسكندرية ، وبلغ الشبلي في المناصب العامة إلى الحجابة ثم الولاية على ذنبا وند من نواحي رستاف الرّيّ ، كان فقيهاً وصوفياً ، واشتهر بالشطح ، وتوفى سنة ٣٣٤هـ. انظر الموسوعة الصوفية – د / عبد المنعم الحفني – ص- ٢٣٦ وما بعدها .

التصوف : الجلوس مع الله بلا هم [٦٨].

وإذا كانت هذه هي بعض تعريفات التصوف من جانب العبادة فإن هذا الجانب لا يعبر أيضاً عن التصوف تعبيراً دقيقاً فقد " يخلط كثير من الناس بين الصوفي والعابد ، فإذا ما رأوا أو سمعوا عن شخص كثير العبادة قالوا عنه إنه : صوفي .

ولا ريب أن الصوفي كثير العبادة ، ولكنك قد تجد أشخاصاً كثيرين يقيمون الصلوات المفروضة ، ويكثرون من النوافل ، ويداومون على العبادة ، ولا يكون معنى ذلك أنهم من الصوفية " [٦٩].

فإذا كان هناك ارتباط وثيق بين العبادة والتصوف،فإنه لايشترط أن يكون العابد صوفياً.

د) جانب الوسيلة والغاية :

من أهم تعريفات التصوف في هذا الجانب ما يلي :

١- قول الجنيد البغدادي : " التصوف هو أن يميتك الحق عنك ويحييك به ". [٧٠]

٢- قول جعفر الخلدي : [٧١] " التصوف : طرح النفس في العبودية ، والخروج من البشرية ، والنظر إلى الحق بالكلية " . [٧٢]

٣- قول أبي بكر الكتاني : " التصوف : صفاء ومشاهدة " . [٧٣]

وإذا كان تعريف التصوف من جوانب : الأخلاق ، والزهد ، والعبادة ، لا يعبر عن التصوف تعبيراً دقيقاً ، ولا يؤدي إلى أن يكون التعريف جامعاً ومانعاً ، وأرى أن التعريف الذي

---

[٦٨] - الرسالة القشيرية – ص ٢١٨.

[٦٩] - المنقذ من الضلال – ص ١٧٩ .

[٧٠] - المرجع السابق – ص ١٨٢.

[٧١] - جعفر الخلدي : هو جعفر بن محمد بن نصير الخلدي ، ويكني أبا محمد ، وقد أسند عن الحارث بن أبي أسامة وغيره ، وسمع الكثير من الحديث ، ولقي جماعة من المشايخ كالجنيد وغيره ، وقيل : إنه حج ستين حجة ، وتوفي سنة ٣٤٨هـ . انظر صفة الصفوة – ابن الجوزي– ج-٢– ص-٣٠٣ .

[٧٢] - المنقذ من الضلال – ص-١٨٢ .

[٧٣] - المنقذ من الضلال – ص ١٨٢ .

يفي بهذا الغرض لمعنى التصوف هو تعريف الكتاني : أن التصوف : صفاء ومشاهدة . فهو يُعد من أدق التعريفات التي ذكرت ومن أصدقها في التعبير عن حقيقية التصوف .

فإذا نظرنا إلى هذا التعريف ، فإننا نجد أن عبارته المختصرة قد جمعت بين جانبين هما اللذان يكونان – في وحدة متكاملة – تعريف التصوف ، أحدهما:"وسيلة " . والثاني : " غاية " أما الوسيلة : فهي " الصفاء " . وأما الغاية : فهي المشاهدة . والتصوف من هذا التعريف طريق وغاية . [٧٤]

والإمام الغزالي [٧٥] يلخص لنا الطريق والغاية فيقول :

" الطريق تقديم المجاهدة ومحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، ومهما حصل ذلك كان الله هو المتولي لقلب عبده والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم ، وإذا تولى أمره أمر القلب فاضت عليه الرحمة وأشرق النور في القلب وانشرح الصدر وانكشف له سر الملكوت ، وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية . فليس على العبد إلا الاستعداد بالتصفية المجردة ، وإحضار الهمة مع الإرادة الصادقة والتعطش التام والترصد بدوام الانتظار لما يفتحه الله تعالى من الرحمة".[٧٦]

فعلى الإنسان أن يترك الدنيا ، ويقبل على الله تعالى ، ويجاهد نفسه حتى يحصل له الصفاء ، وإذا ما حصل ذلك كانت المشاهدة ومنحه الله إياها ، " والمشاهدة التي هي الغاية للصوفية ، هي أيضاً تحقيق واقعي

---

[٧٤]– المرجع السابق – ص-١٨٢ .

[٧٥]– الإمام الغزالي : هذا أبو حامد محمد بن أحمد الغزالي ، الملقب بحجة الإسلام ، ولد بقرية طوس من أعمال خراسان بفارس سنة ٤٥٠هـ – ١٠٥٧ م ، كان متكلماً وصوفياً وفيلسوفاً ،توفى رحمه الله سنة ٥٠٥هـ – ١١١١م . انظر الموسوعة الفلسفية ص٢٩٥

[٧٦]– إحياء علوم الدين – للإمام أبي حامد الغزالي – تحقيق / الشحات الطحان ، عبد الله المنشاوي – ج-٣ – ص-٢٨ – الناشر / مكتبة الإيمان بالمنصورة – ط دار النصر للطباعة الإسلامية – شبرا مصر – الطبعة الأولى – ١٤١٧ هـ – ١٩٩٦م .

للتعبير ، الذي ننطق به في كل آونة حينما نقول : أشهد أن لا إله إلا الله . فالشهادة هي غاية الصوفي ، وإنما يسعى جاهداً إليها بشتى الوسائل ليحقق بالفعل مضمون ما يلفظ به قوة أو ما يقوله حروفاً " . (٧٧)

ومن القصص الطريفة التي تصور الوسيلة إلى مرحلة المشاهدة في سهولة وبراعة قول ذي النون المصري : (٧٨)

رأيت امرأة ببعض سواحل الشام فقلت لها : من أين أقبلت رحمك الله ؟ قالت : من عند أقوام تتجافى جنوبهم عن المضاجع . قلت : وأين تريدين ؟ قالت : إلى رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله . قلت : صفيهم لي ؟ فأنشأت تقول :

قومٌ همومهم بالله قد عَلِقَت ... فما لهم هِمَمٌ تسمو إلى أحدِ
فمطلب القوم مولاهم وسيدهم ... يا حسنَ مطلبِهم للواحد الصمدِ
ما إن تنازعهم دنيا ولا شرف ... من المطاعم واللذات والولدِ
ولا لِلُبس ثيابٍ فائقٍ أنِقٍ ... ولا لروح سُرور حلَّ في بلدِ
إلا مسارعة في إثر منزلةٍ ... وقد قارب الخطو فيها باعد الأبدِ
فهم رهائن غُدرانٍ وأدويةٍ ... وفي الشوامخ تلقاهم مع العددِ(٧٩)

---

٧٧ ــ المنقذ من الضلال ص ١٨٥ ، ١٨٦ .

٧٨- ذو النون المصري : هو أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم الأخميمي المصري ، كان مولى لقريش ، وكان أبوه نوبياً ، وكان نحيفاً طويلاً تعلوه حمرة وليس بأبيض اللحية ، كان عبداً أعتقته قبيلة قريش ، وكان أستاذه في التصوف شقران العبد أو إسرافيل المغربي ، وكان حكيماً فصيح العربية شاعراً ، توفي سنة ٢٤٥هـ . انظر الموسوعة الصوفية د/ عبد المنعم الحنفي – ص- ١٦٥ وما بعدها .

٧٩- التعرف لمذهب أهل التصوف – الكلاباذي – ص-٣٥ ، وانظر المنقذ من الضلال – ص-١٨٤ ، ١٨٥ ، والمدخل إلى التصوف الإسلامي – محمود أبو الفيض المنوفي – ص- ١٤ – ط الدار القومية للطباعة والنشر .

وإذا كان تعريف أبي بكر الكتاني للتصوف يعد من أدق التعريفات ، فذلك لأن تعريفات التصوف الكثيرة والمتنوعة التي نجدها منثورة هنا وهناك . . . إنما تعبر في أغلب الأحايين عن زاوية فقط من زوايا التصوف ، تتصل بالوسيلة ، أو تتصل بالغاية ، فلا يمكن أن يقال عنها – إذا ما كانت كذلك – إنها خطأ تام ، ولكن الخطأ إنما هو في أخذها على أنها تعبر عن الحقيقة الكاملة ، أما ما يعبر عن الحقيقة الكاملة ، فإنما هو تعريف الكتاني:أن التصوف: صفاء ومشاهدة .[٨٠]

وهذا التعريف هو الذي نميل إليه ونرجحه لأنه يؤدي إلى المعنى الصحيح للتصوف ، ولأنه هو التعريف الذي يجمع بين الوسيلة والغاية .

ولعل السبب وراء تعدد تعريفات التصوف باختلاف منطلقاتها المتعددة أن هذه التعريفات مبنية على الذوق وليست مستمدة من العقل والمنطق ، إنها تعريفات ذوقية ناشئة عن سلوك أصحابها باعتبار أن التصوف منهج سلوكي وطريق تربية .

٨٠– المنقذ من الضلال – ١٨٦ .

ثالثاً : تعريف الصوفي :

اختلفت وجهات نظر الصوفية في تعريف الصوفي على وجه التحديد ، ومن أبرز هذه

التعريفات :

١- قول ذي النون المصري حينما سئل عن الصوفي : " هو الذي لا يتعبه طلب ولا يزعجه سالب " . [٨١]

٢- قول سهل بن عبد الله التستري [٨٢] حينما سئل من الصوفي ؟ : " من صفا من الكدر ، وامتلأ من الفكر ، وانقطع إلى الله من البشر ، واستوى عنده الذهب والمدر" . [٨٣]

أي إن الصوفي من صفت نفسه وصفا قلبه من الشوائب البشرية وأخذ يتدبر ويتفكر ، وأشغل قلبه وفكره ونفسه بالله ، لا بشيء غيره ، وزهد في الدنيا وما فيها من متاع زائل .

٣- قول أبي سعيد الخراز [٨٤] حينما سئل عن الصوفي ؟ : " من صفىّ ربُه قلبَه ، فامتلأ قلبه نوراً ، ومن دخل في عين اللذة بذكر الله " . [٨٥]

٤- قول أبي علي الروذباري [٨٦] عندما سئل عن الصوفي ؟ : " من لبس الصوف على الصفاء

٨١- اللمع – الطوسي – ص-٤٥ ، ٤٦ .

٨٢- سهل بن عبد الله التستري : هو أبو محمد سهل بن عبد الله التستري ، نسبة إلى تُستَر من خوز ستان ، سكن البصرة وعبادان ، وطريقته تسمى السهلية وأساسها المجاهدة ورياضة النفس ومراقبتها ومخالفتها كسبيل للخلاص والنجاة والوصول ، توفي سنة ٢٨٣هـ . انظر الموسوعة الصوفية – د/ عبد المنعم الحفني – ص- ٧٩

٨٣- التعرف لمذهب أهل التصوف – ص-٣٤ .

٨٤- أبو سعيد الخراز : هو أبو سعيد أحمد بن عيسى الخراز ، من أهل بغداد ، صحب ذا النون المصري والنباجي وأبا عبيد البصري والسري وغيرهم ، توفي سنة ٢٧٧ هـ وقيل سنة ٢٩٧ هـ . الرسالة القشيرية – ص-٣٨ .

٨٥- المنقذ من الضلال– ص- ١٨٢ .

٨٦- الروذباري : هو أبو علي الروذباري ، واسمه أحمد بن القاسم ، أصله من بغداد ولكنه سكن مصر ، وكانت له معرفته بالحديث والفقه والنحو والتصوف ، وقد صحب أبا على الجنيد ، والنوري وابن الجلاء ، وغيرهم ، وأسند الحديث ، توفي بمصر سنة ٣٢٢ هـ وقيل : سنة ٣٢٣هـ . انظر صفة الصفوة– ابن الجوزي – ج-٣ – ص- ١٨٤ وما بعدها .

وأطعم الهوى ذوق الجفاء ، وكانت الدنيا منه على القفا ، وسلك منهاج المصطفى " . [٨٧]

٥- وقال بندار بن الحسين [٨٨]: " الصوفي : من اختاره الحق لنفسه فصافاه وعن نفسه برأه ولم يردّه إلى تعمل وتكلّف بدعوى " . [٨٩]

٦- وقال بعض الصوفية : الصوفي : " من إذا استقبله حالان أو خلقان حسنان فيكون مع الأحسن والأعلى " . [٩٠]

٧- وقيل في تعريف الصوفي : " معناه أن العبد إذا تحقق بالعبودية وصافاه الحق حتى صفا من كدر البشرية نزل منازل الحقيقة وقارن أحكام الشريعة ، فإذا فعل ذلك هو صوفيٌ ، لأنه قد صوفى " [٩١].

هذه بعض أقوال الصوفية في تعريف الصوفي ، وعلى الرغم من اختلاف وسائل التعبير في هذه التعاريف ، ومع انقسام أسباب التناول فإنها تحاول الوصول إلى مقصد واحد وهو : الإعراض عن الدنيا ، ومتاعها ، وشهواتها ، والعمل على صفاء النفس ومجاهدتها ، وانشغال القلب والفكر بالله ، والانقطاع إليه سبحانه وتعالى ، والعمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، ومن الواضح أن تعريفات الصوفي رغم تعددها لا تنطبق عليها شروط التعريف المنطقي من حد ورسم ونحو ذلك ، ونحن لا نطلب ذلك منها ولا نشترطه فيها لأنه كما قلنا معتمدها الذوق والتجربة الذاتية التي ترسم منهج كل صوفي وسلوكه .

نشأة التصوف الإسلامي :

إذا نظرنا إلى العهد الأول في الإسلام ابتداءً من عهد الرسول ﷺ وأصحابه الكرام ، لوجدنا أن التصوف لم يكن معروفاً لا باسمه ولا برسمه

---

[٨٧]- التعرف لمذهب أهل التصوف – ص-٣٤ .

[٨٨]- بندار بن الحسين : هو أبو الحسن بندار بن الحسين الشيرازي ،وكان عالماً بالأصول ، كبيراً في الحال وصحب الشبلي ، توفى بأرجان سنة ٣٥٣ هـ . انظر الرسالة القشيرية – ص-٤٩.

[٨٩]- التعرف لمذهب أهل التصوف – ص- ٣٤ .

[٩٠]- اللمع – ص-٤٦ .

[٩١]- المرجع السابق – ص-٤٧ .

ولا بسلوكه ، ولا كعلم له أسسه وأصوله ، ولم تكن كلمات : تصوف وصوف وصوفية تجري على ألسنة الناس أو تشيع في أقوالهم ، وإنما كانت له إرهاصات كمقدمة لابد منها ، هذه الإرهاصات تمثلت في مرحلة الزهد ، هذا الزهد الذي كان موجوداً منذ عهد النبي ﷺ ، والذي كان مستمداً من أدب القرآن الكريم ، وسنة النبي ﷺ ، وأحوال أصحابه رضي الله عنهم ، إذن فالزهد يعتبر مرحلة سابقة على التصوف.

وهناك فرق بين الزهد والتصوف " الزهد اتجاه سلوكي مضمونه التقشف والانقطاع عن الدنيا والاتجاه إلى الله عن طريق العبادات المعروفة في الدين . فغاية الزاهد إذن تمام العبادات وكمالها على ما وضعه الشارع . . . أما المتصوف فهو الذي يسلك طريق التجربة الروحية ويستعمل طرق المجاهدة والرياضة الروحية لكي يصل إلى مرتبة تتكشف له فيها الحقائق العليا فيكون إذن قد تخطى عتبة الدين الظاهر والرسوم الشرعية . . . وليس معنى هذا أنه قد يتجاوزها إلى ما هو ضد لها بل بمعنى أنه قد زاد تعمقاً لباطن[٩٢] الشريعة "[٩٣]

وقد ميز ابن الجوزي[٩٤] بين الزهد والتصوف فقال :

٩٢- ليس المقصود بباطن الشريعة ما ذهب إليه الباطنية من أن الشريعة لها ظاهر وباطن ، ولكن المقصود بتعمق الصوفي لباطن الشريعة هو تعمقه في الجانب الروحي وتخلقه بباطن الشريعة مترقياً من الوقوف عند ظواهر النصوص إلى العمل بروحها .

٩٣- تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام – ج- ٢ – الحركة الصوفية في الإسلام – د / محمد علي أبو ريان – ص- ٢٧ – ط دار المعرفة الجامعية – الإسكندرية – ١٩٩٥م .

٩٤- ابن الجوزي : هو عبد الرحمن بن عليّ بن محمد بن عليّ بن محمد بن علي بن عبيد الله ، البغدادي الحنبلي المعروف بابن الجوزي ، وواقف الجوزية ، يتصل نسبه بأبي بكر الصديق، ولد سنة ثمانين وخمسمائة من الهجرة ، تولي تدريس الحنابلة فترة، وكانت له تداريس أخرى ، توفي رحمه الله سنة ست وخمسين وستمائة من الهجرة . انظر البداية والنهاية– ابن كثير – ج- ١٣ – ص- ٢١١ – ط ــ مكتبة المعارف – بيروت – الطبعة الرابعة – ١٩٨٢ م .

" التصوف مذهب معروف يزيد على الزهد ويدل على الفرق بينهما أن الزهد لم يذمه أحد وقد ذم البعض التصوف وأنكره " . [٩٥]

وإذا كان الزهد مقدمة للتصوف ، فإن الإسلام لم يختص وحده بالزهد ، فالزهد عقيدة قديمة موجودة في الأديان السابقة للدين الإسلامي ، فكانت موجودة في اليهودية والنصرانية وكذلك كانت موجودة عند قدماء المصريين والزادشتيين والبوذيين والبراهمين ، وغيرهم من أصحاب العقائد القديمة .

إلا " أن الزهد الإسلامي كان ذا طابع فريد ، وأنه متصل بأكثر من سبب بخصائص العقيدة الإسلامية فقد كان تقشفاً وإعراضاً عن زينة الحياة الدنيا وزخرفها اتباعاً للنواهي والأوامر القرآنية " [٩٦].

فقد حث القرآن الكريم على عدم حب الدنيا ، والزهد فيها والتقليل من شأنها ، وعدم الخوض في زخرفها ومتاعها ، ورغب في الحياة الآخرة إذ هي الدار الباقية ، قال عز وجل ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [٩٧] . وقال تعالى : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾ [٩٨] .

وقال عز من قائل : ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ [٩٩] . . . إلى غيرها من الآيات التي تدل على الزهد في الدنيا .

" ولكنه مع هذا لم يكن في هذا الزهد ما يحبذ ترك العمل والتكاسل والركون إلى الصدقات فينتظر الزاهد حتى يعوله غيره ، كما هو الحال في نظام الرهبنة المسيحية ، فالزاهد

---

[٩٥]- تلبيس إبليس – ص-١٤٨ .

[٩٦]- تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام- ج-٢- الحركة الصوفية في الإسلام- د/محمد على أبو ريان – ص- ٢٨ .

[٩٧]- سورة الحديد – آية ٢٠ .

[٩٨]- سورة النحل – آية ٩٦ .

[٩٩]- سورة النازعات – الآيات ٣٧ – ٤١ .

الإسلامي متأثراً بتعاليم الإسلام يرى في العمل لكسب القوت ضرورة كبرى لتحقيق تمام الإيمان ويبدو ذلك من خلال نظرية التوكل التي أشار إليها الصوفية ، فالصوفي لا يركن إلى الغير ولا ينتظر الرزق من أحد ، بل يتجه إلى الله ويعتمد على نفسه في كسب معاشه . وهذا هو الفرق الظاهر بين زهد البراهمة والمسيحيين وزهد المسلمين " . [١٠٠]

إلا أن هذا الزهد قد تحول وتغير تدريجياً بمضي الزمن إلى علم مستقل بنفسه له قواعده وأصوله وهو علم التصوف .

ولكن اختلف في وقت ظهور هذا المصطلح وعلى من أطلق :

١- يرى أبو الفرج بن الجوزي أن أول من تسمى بالصوفي هو الغوث بن مر ، وكان يقال له صوفة ، وذلك في الجاهلية ، أي قبل ظهور الإسلام [١٠١] .

وقد ذكرنا هذا الرأي بشيء من التفصيل عند الحديث عن اشتقاق كلمة تصوف وبينا ضعفه .

٢- ويرى ابن عجيبة [١٠٢] أن أول من تكلم في هذا العلم وأظهره هوالإمام عليّ ابن أبي طالب – كرم الله وجهه – ، وأخذه عنه الحسن البصري ، وقيل : أخذه عنه ولده الحسن بن عليّ – رضي الله عنهما – ثم أخذ هذا العلم ينتقل من واحد إلى آخر حتى ذاع وانتشر . [١٠٣]

٣- ويرى الدكتور/ زكي مبارك أن التصوف قديم عرفه العرب قبل الإسلام وتخلقوا به لعهد الرسول ، إلا أنه لم يكن ملحوظاً في كلام الناس ، ولم يختصوه بدرس ولا بيان ، وكانت الأعمال الروحية تندرج في الأعمال

١٠٠- تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام – ج-٢ – الحركة الصوفية في الإسلام – د/ أبو ريان – ص-٢٨.

١٠١- انظر تلبيس إبليس – ص-١٤٥ ، ١٤٦ .

١٠٢- ابن عجيبة : هو أبو عباس أحمد بن محمد بن المهدي ، ولد سنة ١١٦٠هـ ، لقب بابن عجيبة لأنه كان كثير الثقافة واسع الاطلاع ، وبرع في النحو وغيره ، وله آراء ومقالات في التصوف . وله مؤلفات كثيرة ، توفي رحمه الله سنة ١٢٢٤هـ . انظر الموسوعة الصوفية د/ عبد المنعم الحفني – ص-٢٨٥ .

١٠٣- إيقاظ الهمم في شرح الحكم– للعارف بالله أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني– ص- ٦– ط مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر– الطبعة الثالثة ١٤٠٢ هـ – ١٩٨٢م .

الدينية . وكان أول من تكلم في المعاني الوجدانية وأسرار القلوب هو حذيفة ابن اليمان الصحابي الجليل ، وقد قيل له : نراك تتكلم في هذا العلم بكلام لا نسمعه من أحد من أصحاب رسول الله ﷺ فمن أين أخذته ؟ فقال : خصني به رسول الله ﷺ ، وكان الناس يسألونه عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيه ، وعلمت أن الخير لا يسبقني . . . وكان حذيفة قد خص بعلم المنافقين وأفرد بمعرفة علم النفاق وبسرائر العلم ودقائق الفهم وخفايا اليقين من بين الصحابة . ثم أخذ الحسن البصري هذا العلم عن حذيفة . [١٠٤]

وإذا كان الدكتور زكي مبارك قد ذهب إلى أن التصوف كان موجوداً في عهد النبي ﷺ ، فإن الذي لابد أن نشير إليه أنه ليس من مظاهر التصوف كعلم له قواعده وأصوله أنه كان موجوداً في ذلك العصر ، لأنه كان زهداً فقط .

٤- يرى أصحاب هذا الرأي وعلى رأسهم السَّراج الطوسي [١٠٥] أن التصوف كان معروفاً في عصر التابعين ، وبخاصة في وقت الحسن البصري ، يقول الطوسي :

" في وقت الحسن البصري كان يُعرف هذا الاسم – الصوفية – ، كان الحسن قد أدرك جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ ، ورضي الله عنهم ، وقد روي عنه أنه قال : رأيت صوفياً في الطواف فأعطيته شيئاً فلم يأخذه وقال : معي أربعة دوانيق [١٠٦] فيكفيني ما معي " [١٠٧] .

ويؤيد رأيه هذا بقول سفيان الثوري[١٠٨] :

---

١٠٤ – التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق – ج- ٢ – ص- ٨ ، ٩

١٠٥ – السَّراج الطوسي : أبو نصر عبد الله بن على السَّراج الطوسي ، الملقب بطاووس الفقراء وصاحب كتاب اللمع الذي يعد أقدم وأوثق المراجع في التصوف ، وكان من أوائل من حذروا من المتشبهين بالصوفية ، والمتلبسين بلباسهم ، والمتسمين باسمهم ، توفي رحمة الله سنة ٣٨٧ هـ . انظر الموسوعة الصوفية – د / عبد المنعم الحنفي – ص- ١٩٩ .

١٠٦ – دوانيق : مفردها دانق ، والدانق سُدس الدرهم . انظر المعجم الوجيز – مجمع اللغة العربية – ص- ٢٣٥ – طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم – ١٤١٦ هـ – ١٩٩٥ م

١٠٧ – اللمع – ص- ٤٢ .

١٠٨ – سفيان الثوري : هو سفيان بن سعيد الثوري ، ولد سنة ٩٧ هـ في خلافة سيلمان بن عبد الملك ، وأدرك جماعة من التابعين ، وروي عن الأعمش، ومنصور ، ومحمد بن المنكدر، وغيرهم ، كان مستخفياً بالبصرة في خلافة المهدي ، وتوفي رحمة الله سنة ١٦١ هـ . انظر صفة الصفوة – ابن الجوزي – ج-٣ – ص- ٩٧ وما بعدها .

" لولا أبو هاشم الصوفي [١٠٩] ما عرفت دقيق الرياء " . [١١٠] وإذا كان الحسن البصري توفي سنة ١١٠هـ ، وأن أبا هاشم توفي سنة ١٥٠ هـ ، فمعني هذا أن التصوف ظهر وذاع في أواخر القرن الأول ، وأوائل القرن الثاني الهجريين .

٥- يرى الإمام القشيري [١١١] أن هذا المصطلح – التصوف – ظهر وذاع في أواخر القرن الثاني الهجري ، إذ يقول :

" إن المسلمين بعد رسول الله ﷺ – لم يتسم أفاضلهم في عصرهم بتسمية سوى صحبه رسول الله ﷺ – إذ لا فضيلة بعدها فقيل لهم الصحابة ، ولما أدركهم أهل العصر الثاني سمي من صحب الصحابة بالتابعين ، ثم قيل لمن بعدهم أتباع التابعين ، ثم اختلف الناس وتباينت المراتب فقيل لخواص الناس ممن لهم عناية بأمر الدين : الزهاد والعباد ، ثم ظهرت البدع وحصل التداعي بين الفرق ، فانفرد خواص أهل السنة ، المراعون أنفاسهم مع الله تعالى ، الحافظون قلوبهم عن الغفلة باسم "التصوف"واشتهر هذا الاسم لهؤلاء قبل المائتين من الهجرة " [١١٢]

ومن أنصار هذا الرأي أيضاً ابن خلدون إذ يقول :

" ... فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختُص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة " . [١١٣]

---

١٠٩ – أبو هاشم الصوفي : ولد بالكوفة وكان من المعاصرين لسفيان الثورى ، وكان معاصراً لجعفر الصادق ، وينسب إلى الشيعة الأوائل ، ويسميه الشيعة مخترع الصوفية ، توفي بالشام سنة ١٥٠ هـ وقيل سنة ١٦٢ هـ . انظر الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة – إشراف ومراجعة د / مانع بن حماد الجهني – المجلد الأول – ص- ٢٥١ – الناشر/ دار الندوة العالمية – الرياض – الطبعة الرابعة – ١٤٢٠ هـ .

١١٠ – اللمع – ص- ٤٢ .

١١١ – القشيري : هو أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري ، صاحب الرسالة القشيرية المشهورة في التصوف ، ولد سنة ٣٧٦ هـ بخراسان ونشأ بها ، ومات أبوه وهو صغير فتربى يتيماً ، وكانت له فراسة وفروسية ، وكانت له الإمامة في مجلس التذكير ، توفي – رحمه الله – سنة ٤٦٥ هـ . انظر الموسوعة الصوفية- د / عبد المنعم الحنفي- ص- ٣٢٣ وما بعدها .

١١٢ – الرسالة القشيرية – ص- ١٢ .

١١٣ – مقدمة ابن خلدون – ص- ٤٦٧ .

ومما سبق يتضح أن إطلاق هذه اللفظة " الصوفية والمتصوفة " على من سموا بها كان ذلك في عصر ما بعد تابعي التابعين ، حيث ظهرت الفرق المتعددة ، وادعت كل فرقة أن منهم الزهاد والعباد .

٦- ويذهب الأستاذ ماسينيون [١١٤] إلى أن أول من لقب بالصوفي هو عبدك الصوفي الذي كان شيعياً ونشأ بالكوفة . وتوفي ببغداد حوالي عام ٢١٠ هـ . ومرة ثانية يذهب ماسينيون إلى أن لفظ " صوفي " ورد لقباً مفرداً لأول مرة في التاريخ في النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي ، إذ نعت به جابر ابن حيان ، الكيميائي والفيلسوف العربي المعروف ، والذي كان شيعياً من أهل الكوفة ، وله مذهب خاص في الزهد ، وتوفي سنة ٢٠٠ هـ . . . وإذن فكلمة " صوفي" كانت أول أمرها مقصورة على الكوفة . [١١٥]

وعلى هذا الرأي فإن لقب " الصوفي " قد ظهر في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري.

٧- ويرى الإمام ابن تيمية [١١٦] أن لفظ " الصوفية " لم يكن مشهوراً كعلم في القرون الثلاثة الأول للهجرة،وإنما اشتهر التكلم به بعد ذلك [١١٧] .

---

١١٤ - ماسينيون : هو لويس ماسينيون ، مستشرق فرنسي ، ولد سنة ١٨٨٣ م ، درس التصوف الإسلامي وبخاصة الحلاج ، وعنى بالآثار الإسلامية ، واهتم بالمشاكل العصرية في البلاد الإسلامية ، مات سنة ١٩٦٢م . انظر موسوعة المستشرقين – د / عبد الرحمن بدوي – ص-٥٢٩ .

١١٥ - دائرة المعارف الإسلامية – المجلد التاسع – مادة التصوف – ص- ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، وانظر إسلام بلا مذاهب – د / مصطفى الشكعة – ص- ٤٦٣ .

١١٦ - ابن تيمية : هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن الخضر بن محمد بن الخضر بن علي بن عبد الله بن تيمية ، الحراني ، الدمشقي ، الحنبلي ، شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس ، محدث حافظ ، مفسر ، فقيه ، مجتهد ، ولد في ١٠ ربيع الأول سنة ٦٦١ هـ بحران له تصانيف كثيرة ، توفي بقلعة دمشق في ٢٠ من ذي القعدة سنة ٧٢٨ هـ . انظر معجم المؤلفين – عمر رضا كحالة – المجلد الأول – ح- ١ – ص- ٢٦١ – الناشر / مكتبة المثنى – بيروت – ودار إحياء التراث العربي – بيروت .

١١٧ - فتاوى ابن تيمية – المجلد الحادي عشر – ص- ٥ .

ومما سبق يتضح أن التصوف كعلم له أصوله وأسسه وقواعده لم يكن معروفاً على عهد النبي ﷺ ولم يكن معروفاً لقب الصوفي والصوفية ، وإنما الذي كان معروفاً ومشهوراً هو الزهد في الدنيا ، والانقطاع إلى الله تعالى ، والإقبال على الآخرة .

وإذا كان لقب " الصوفية " لم يكن معروفاً بين أصحاب النبي ﷺ ، ولم يطلق على أحد من أصحابه ﷺ أنه صوفيّ ، وذلك لأن " الصحبة مع رسول الله ﷺ ، لها حرمة وتخصيص من شمله ذلك ، فلا يجوز أن يطلق عليه اسم على أنه أشرف من الصحبة وذلك لشرف رسول الله ﷺ وحرمته ، ألا ترى أنهم أئمة الزّهاد والعُبّاد والمتوكلين والفقراء والراضين والصابرين والمخبتين ، وغير ذلك ، وما نالوا جميع ما نالوا إلا ببركة الصحبة مع رسول الله ﷺ ، فلما نُسبوا إلى الصحبة التي هي أجلُّ الأحوال استحال أن يفضلوا بفضيلة غير الصحبة "[118] .

ثم أطلق على من تبع الصحابة التابعين ، وكان ذلك أشرف سمة لهم ولما اتسعت رقعة الإسلام ، وكثرت الفتوحات الإسلامية ، واختلط المسلمون بغيرهم من أصحاب الأفكار والمعتقدات والثقافات الأجنبية المختلفة ، ومالت حياة البعض إلى الترف والبذخ ، الأمر الذي أدى إلى ظهور طائفة أخرى مقابلة لهؤلاء مالوا إلى الزهد في الدنيا ، وكثرة العباد ، والتنسك لذلك سموا بالزهّاد والعبّاد والنّساك ، وكان ذلك في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري ، وأوائل القرن الثالث ، ثم تطورت هذه التسمية عبر الأزمنة والعصور حتى ظهرت وذاعت ألفاظ : صوفي ، ومتصوفة ، وتصوف ، مع التغيرات التي شهدتها الساحة الإسلامية ، وكان ذلك في القرن الثالث الهجري ، إلى أن أصبح التصوف علماً قائماً له أسسه ، وأصوله ، وأئمته ، ومريدوه .

---

[118] – اللمع – السراج الطوسي – ص- ٤٢ .

موضوع التصوف :

إن موضوع التصوف هو الذات العلية ،لأنه يبحث عنها باعتبار معرفتها إما بالبرهان ، أو بالشهود والعيان ، فالأول للطالبين ، والثاني للواصلين . وقيل : موضوعه النفوس والقلوب والأرواح ، لأنه يبحث عن تصفيتها وتهذيبها ، وهو قريب من الأول ، لأن من عرف نفسه عرف ربه [١١٩] .

فضل التصوف :

اعتبر المتصوفة أن التصوف من أفضل العلوم ، لأنه لما كان موضوعه الذات العلية ، وهي أفضل على الإطلاق ، فالعلم الذي يتعلق بها أفضل على الإطلاق ، لأنه دال بأوله على خشية الله تعالى ، وبوسطه على معاملته ، وبآخره على معرفته والانقطاع إليه . ولذلك قال الجنيد : " لو نعلم أن تحت أديم السماء أشرف من هذا العلم الذي نتكلم فيه مع أصحابنا لسعيت إليه " [١٢٠] .

وأفضليته عندهم نابعة من كونه " كمال في العبادة ، وكمال في الطاعة ، وكمال في العبودية ، ومحبة لله ، وعمل على رضاه ، وأمل في نجواه ، وأنشودة يشترك فيها القلب والروح والحس والجوارح . أنشودة تسبح بحمد الله لا تفتر ولا تهدأ لأن لحنها دائم الحياة في القلب . . والروح والإدراك والحس . أنشودة تحيل الكون كله إلى آية ربانية . . . فإذا بكل شيء محراب . . ومصلي ، وإذا بالصوفي لا يبرح المحراب ولا يفارق المصلي . . إنه دائماً مع الله " [١٢١] .

كما أنه من أفضل وأشرف العلوم لأنه مستمد من كتاب الله ، وسنة رسوله ﷺ وأحواله وأقواله ، وحياة الصحابة وأحوالهم وأقوالهم .

نسبة التصوف من العلوم:

إن الصوفية يرون أن التصوف كلي للعلوم وشرط فيها ، إذ لا علم ولا عمل إلا بصدق التوجه إلي الله تعالى ، فالإخلاص شرط في الجميع ، هذا باعتبار الصحة الشرعية والجزاء والثواب ، و أما باعتبار الوجود الخارجي ، فالعلوم توجد في

---

١١٩ – إيقاظ الهمم – ابن عجيبة – ص- ٦.

١٢٠ – نفس المرجع – ص-٩ .

١٢١ – التصوف الإسلامي والإمام الشعراني – طه عبد الباقي سرور – ص- ٦٠ – مكتبة نهضة مصر - القاهرة .

الخارج بدون التصوف ، لكنها ناقصة أو ساقطة ، ولذلك قال الإمام السيوطي[١٢٢] : نسبة التصوف من العلوم كعلم البيان مع النحو ، يعني هو كمال فيها ومحسّن لها. وقال آخر : نسبة التصوف من الدين كنسبة الروح من الجسد ، لأنه مقام الإحسان الذي فسره رسول الله ﷺ لجبريل : " أن تعبد الله كأنك تراه" [١٢٣] إذ لا معنى له سوى ذلك ، إذ مداره على مراقبة بعد مشاهدة أو مشاهدة بعد مراقبة ، وإلا لم يقم له وجود ويظهر له موجود . . . ولعله أراد بالمراقبة بعد المشاهدة الرجوع للبقاء بشهود الأثر بالله . [١٢٤]

فهم يرون إذن أن التصوف يقابل مرتبة الإحسان التي جاءت في حديث جبريل حين سأل النبي ﷺ فقال : وما الإحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . .

.

فالناس عند الصوفية مراتب : المسلمون ، ثم المؤمنون ، ثم المحسنون وهم الذين يعبدون الله عبادة مشاهدة .

فائدة التصوف :

فائدة التصوف هو تهذيب القلوب ومعرفة علام الغيوب ، أو تقول : ثمرته سخاوة النفوس ، وسلامة الصدور ، وحسن الخُلق مع كل مخلوق . [١٢٥]

خصائص التصوف :

للتصوف الإسلامي باعتباره علماً في رأي الصوفية مزايا وخصائص تميزه عن سائر العلوم الأخرى ، وأهمها ما يلي :

---

١٢٢ – السيوطي : هو عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن أبي بكر بن عمر بن خليل بن نصر ابن الخضر بن الهمام الجلال الأسيوطي ، صاحب التصانيف ، نشأ يتيماً ، وحفظ القرآن والألفية النحوية والعمدة ، رحل كثيراً ، وبرز في فنون العلم ، ولد سنة ٨٤٩ هـ ، توفي سنة ٩١١هـ . انظر البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع – الشوكاني – حـ ١ – صـ ٣٢٨ – ط مطبعة السعادة – القاهرة – الطبعة الأولى ١٣٤٨ هـ .

١٢٣ – جزء من حديث أخرجه الإمام البخاري في صحيحه – كتاب الإيمان – باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإحسان – جـ ١ – صـ ١٧، ١٨ .

١٢٤ – إيقاظ الهمم – ابن عجيبة – صـ ٩ .

١٢٥ – المرجع السابق – صـ ٩ .

١- الترقي الخلقي :

كل تصوف له قيم ومبادئ أخلاقية معينة ويهدف إلى تصفية النفس لأجل الوصول إلى تحقيق هذه القيم والمبادئ ، وهذا بالضرورة يستتبع مجاهدات بدنية ، ورياضات نفسية معينة، وزهد في ماديات الحياة وما إلى ذلك .[١٢٦]

وعن طريق هذه المجاهدات البدنية والرياضات النفسية يصفو قلب الصوفي وقالبه ، وحينئذ يرقي .

٢- الفناء في الحقيقة المطلقة :

والفناء أمر يميز التصوف بمعناه الاصطلاحي الدقيق والمقصود به : هو أن يصل الصوفي من رياضاته إلى حالة نفسية معينة لا يعود يشعر فيها بذاته ، كما يشعر ببقائه مع حقيقة أسمي مطلقة ، وأنه قد فنيت إرادته في إرادة المطلق. وفي هذه الحالة قد ينطلق بعض الصوفية إلي القول بالاتحاد بهذه الحقيقة ، أو أنها حلّت فيهم ، أو أن الوجود واحد لا كثرة فيه بوجه ما ، وقد يقول بعضهم بالأثنينية أو الكثرة في الوجود .[١٢٧] ومن هنا فإن خاصية الفناء تكون منطبقة على الصوفية القائلين بوحدة الوجود ، وغيرهم ممن لم يقولوا بها .

٣- العرفان الذوقي المباشر :

ويطلق عليه العرفان الصوفي ، وهو معيار دقيق يميز التصوف عن غيره من العلوم وبخاصة الفلسفة ، إذ الفيلسوف يعمد إلى اصطناع مناهج العقل في فلسفته لإدراك الحقيقة ، أما الصوفي فهو يؤمن بأن وراء إدراك الحس واستدلال العقل منهجاً آخر للمعرفة بالحقيقة وهو ما يسمى بالكشف أو الذوق .

" وليس التصوف إذن ثقافة كسبية تتأثر بهذا الاتجاه أو ذاك ، وإنما هو ذوق ومشاهدة ، يصل الإنسان إليهما عن طريق الخلوة ، والرياضة والمجاهدة ، والاشتياق ، بتزكية النفس ، وتهذيب الأخلاق ، وتصفية القلب لذكر الله تعالي . . .

---

[١٢٦] - مدخل إلى التصوف الإسلامي – ص- ٦ .

[١٢٧] - مد خل إلى التصوف الإسلامي– ص- ٧ .

وهذا هو جوهر الشعور الصوفي . أخص خصائص التصوف : شعور لا يمكن التعبير عنه ، فإن الإنسان يصل فيه ، إلى درجات يضيق عنها نطاق الكتابة ، فلا يحاول معبر أن يعبر عنها ، إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح، لا يمكنه الاحتراز عنه " . [١٢٨]

إذن فالذوق أو الكشف الصوفي استمداد من مصدر النور والهداية يجئ بعد رياضة بدنية ومعاناة نفسية ، إلا أنه أشبه بالومضة سريعة الزوال .

٤- الطمأنينة أو السعادة :

وهي خاصية مميزة لكل أنواع التصوف ، إذ إن التصوف يهدف إلى محاولة قهر دواعي شهوات البدن ، أو ضبطها ، وإحداث نوع من التوافق النفسي لدى الصوفي ، وهذا يجعله متحرراً من كل مخاوفه ، شاعراً براحة نفسية عميقة ، أو طمأنينة ، تتحقق معها سعادته .[١٢٩]

٥- الرمزية في التعبير :

وهي تعني معنيين : الأول : يستفاد من ظاهرة الألفاظ والآخر : يستفاد بالتحليل والتعمق في التأويل .

وهذا المعنى الأخير يكاد يستغلق تماماً على من ليس بصوفي . وصعوبة فهم كلام الصوفية أو إدراك مراميهم ، يرجع إلى أن التصوف حالات وجدانية خاصة يصعب التعبير عنها بألفاظ اللغة ، كما أنها ليست شيئاً مشتركاً بين جميع الناس . وكل صوفي له طريقة خاصة معينة في التعبير عن حالاته . [١٣٠]

ومن أشهر الصوفية الذين اشتهروا بالرمزية في التعبير هو محي الدين ابن عربي [١٣١] ، فقد كانت له عبارات تحمل بين طياتها معاني لا تعرف إلا بالتحليل والتعمق في التأويل ، ومن الصعب أن يفهمها العامة من الناس .

---

١٢٨ – المنقذ من الضلال – ص- ٢٣٩ .

١٢٩ –مد خل إلى التصوف الإسلامي – ص- ٧ .

١٣٠ – المرجع السابق – ص- ٨ .

١٣١ – ابن عربي : هو محيى الدين أبو بكر بن عربي ، الحاتمي الطائي ، شيخ الصوفية، وسلطان العارفين ، ولد بمدينة فى الأندلس سنة ١١٦٤م ، له مؤلفات تربو على الثلاثمائة توفى سنة ١٢٤٠م. انظر الموسوعة الفلسفية ـ ص ٢٠ .

المبحث الثانى

التصوف والصوفية من وجهة نظر الخصوم

المبحث الثاني

التصوف والصوفية من وجهة نظر الخصوم

أولاً : التصوف والصوفية من وجهة نظر الفقهاء والمحدثين:

إن الصراع بين الفقهاء والصوفية قديم ، وذلك حينما انقسم علم الشريعة إلى قسمين أحدهما :اختص به أهل الفقه والفُتيا في العبادات والمعاملات والأحكام العامة.

والثاني :اختص به الصوفية وأهل الباطن وقد اشتمل على أحوالهم : من الرياضة والمجاهدة والمراقبة والمحاسبة ، والمقامات والأحوال والمواجيد إلى غير ذلك .

وكتب الفقهاء كتبهم وألفوا مؤلفاتهم ودونوا فيها الأحكام الظاهرة التي استنبطوها من مصادر التشريع المعروفة وعلى رأسها الكتاب والسنة ، وكتب الصوفية كتبهم وألفوا مؤلفاتهم فدونوا فيها مواجيدهم وحقائقهم ومذاهبهم ، والتي أقامها البعض منهم على أساس من الكتاب والسنة .

ومن هنا بدأ الخلاف بين الفريقين ، حيث إن الصوفية " كانوا ينظرون إلى الفقهاء على أنهم أهل ظواهر وأرباب رسوم ، في حين كانوا ينظرون إلى أنفسهم على أنهم أهل البواطن وأرباب الحقائق . وكما نظر الصوفية إلى الفقهاء هذه النظرة ، فقد نظر الفقهاء إلى الصوفية نظرة مقابلة كلها سخط على الصوفية ، وتكفير لهم ، وتجريح لمذاهبهم : ذلك بأن الفقهاء نظروا فيما خلفه الصوفية من أقوال ، وما أثر عنهم من أحوال ، فإذا هم يرون هؤلاء القوم يمعنون في الباطن ، ويسرفون في التحدث عما في هذا الباطن من ضمير يستلهمونه المعرفة من ناحية ، والحكم على الأعمال من ناحية أخرى ، فأحنقهم ذلك عليهم لما بينه وبين تعاليم القرآن من مخالفة : فقد قال الصوفية بالمعرفة الباطنة الحاصلة عن طريق القلب ، في حين قال القرآن بالمعرفة الآتية عن طريق الاعتبار والاستبصار ، واحتكم الصوفية إلى الضمير وما يوحيه من حكم على هذا الفعل بأنه خير ، وعلى ذاك الفعل بأنه شر ، في حين أن شريعة القرآن تقوم الناس وأفعالهم بحسب الظاهر ، وتعاقب المسيء على إساءته ، وتثيب المحسن على إحسانه . ومن هنا عمد الفقهاء إلى الإبانة عن الزيغ

والضلال في قول الصوفية بأن النية مقدمة على العمل ، وأن السنة خير من الفرض ، وأن الطاعة خير من العبادة " . (١٣٢)

ولذلك ذم كثير من الفقهاء مثل الإمام مالك بن أنس والإمام الشافعي والإمام أحمد بن حنبل وغيرهم الصوفية والتصوف ، ولذلك يقول ابن تيمية :

وأما الشافعي فالمنقول عنه ذم الصوفية وكذلك مالك . . . وقد ذم طريقهم طائفة من أهل العلم ومن أصحاب مالك وأحمد والشافعي وأبي حنيفة وأهل الحديث وغيرهم . (١٣٣)

وروى عن الإمام الشافعي قوله : " لو أن رجلاً تصوف أول النهار لا يأتي الظهر حتى يصير أحمق " . (١٣٤)

وقال أيضاً : " ما لزم أحد الصوفية أربعين يوماً فعاد عقله إليه أبداً " ، وأنشد قائلاً :

ودع الذين إذا أتوك تنسكوا وإذا خلوا كانوا ذئاب خفاف.(١٣٥)

وروى عن أحمد بن حنبل أنه سمع كلام الحارث المحاسبي . فقال لصاحب له : لا أرى لك أن تجالسهم . (١٣٦)

وقد أنكر الفقهاء والمحدثون بمصر على ذي النون ما كان يتكلم به من ترتيب الأحوال ومقامات أهل الولاية ، وأخرج فقهاء دمشق أبا سليمان الداراني من دمشق ، وقالوا : إنه يزعم أنه يرى الملائكة وأنهم يكلمونه ، وهرب من أيدي الفقهاء والمحدثين أحمد بن أبي الحواري (١٣٧) من

١٣٢- الحياة الروحية في الإسلام – ص-١٣٥، ١٣٦ .

١٣٣- انظر فتاوى ابن تيمية – ج- ١٠ – ٣٨٥ .

١٣٤- تلبيس إبليس – ص- ٣٢٧ .

١٣٥- نفس المرجع والصفحة .

١٣٦- نفس المرجع – ص- ١٤٩ .

١٣٧- أحمد بن أبي الحوري : هو أبو الحسين أحمد بن أبي الحواري ، من أهل دمشق ، صحب أبا سليمان الداراني وغيره ، مات سنة ٢٣٠هـ . انظر الرسالة القشيرية – ص-٢٨ .

دمشق إلى مكة الذي قيل إنه كان يفضل الأولياء على الأنبياء ، وكذلك أنكروا ببسطام على أبي يزيد وأخرجوه منها ، وكذلك فعل بسهل بن عبد الله التستري . (١٣٨)

وسئل أبو زرعة الدمشقي عن الحارث المحاسبي وكتبه فقال للسائل : إياك وهذه الكتب ، إنما كتب بدع وضلالات ، وعليك بالأثر فإنك تجد فيه ما يغنيك عن هذه الكتب . (١٣٩)

على أن الصراع بين الفقهاء والصوفية لم تهدأ حدته إلا في عهد الإمام أبي حامد الغزالي . الذي استطاع بما وهبه الله من صفاء الروح ، وجلاء القلب ، وذكاء العقل ، ونقاء السريرة ، وقوة الإيمان أن يحبب التصوف إلى نفوس الفقهاء والمحدثين ، ثم أخذ التصوف بعد الغزالي طريقاً مزج فيه أصحابه التصوف بالفلسفة ، وكانت لهم تعاليم تتنافى مع تعاليم الإسلام ، مما جعل من ينظر في هذه التعاليم من الفقهاء والمحدثين ويطلع عليها أن يرموا أصحابها بالكفر والزندقة .

ويصور الدكتور / محمد مصطفى حلمي هذه الفترة بين الفقهاء والصوفية وما شهدته من خلافات وخصومات بين الفريقين قائلاً :

" شهد القرن السابع للهجرة ، وما تلاه من القرون سلسلة من الخصومات بين الفقهاء والصوفية ، كانت تقوي وتعنف حيناً ، وتهدأ ثورتها وتخف حدتها حيناً آخر ، ولكنها كانت على كل حال مثاراً للقيل والقال ، ومنبعاً فياضاً بالشكوك والشبهات تلقي على حياة الصوفية وأذواقهم ومذاهبهم ، وما يترتب على هذا كله من نتائج لها خطرها من حيث العقيدة الإسلامية ، والأحكام الشرعية . ولقد كانت مذاهب الاتحادية ، وما يناسبها من اعتناق الحلول ووحدة الوجود ، هي المحور الرئيسي الذي كانت تدور عليه هذه الشبهات ، وتوجه إليه تلك الشكوك " (١٤٠) .

١٣٨- تلبيس إبليس – ص- ١٥٠ ، ٣٢٧ .

١٣٩- المرجع السابق – ص- ١٤٩.

١٤٠- الحياة الروحية في الإسلام – ص- ١٨٨، ١٨٩ .

ثانياً : التصوف والصوفية من وجهة نظر المتكلمين :

١- من وجهة نظر الخوارج :

إن الخوارج عامة أخذوا على الصوفية إطاعتهم للسلطان ، حتى وإن كان جائراً ، وأخذوا عليهم كذلك قولهم : إن النية أفضل من العمل . [١٤١]

٢- من وجهة نظر الشيعة :

وأما الشيعة فقد نسبت إليهم أقوال يهاجمون فيها التصوف والصوفية .

من ذلك ما نسب إلى الإمام جعفر الصادق أنه سئل عن حال أبي هاشم الكوفي الصوفي ؟ فقال : " إنه كان فاسد العقيدة جداً ، وهو الذي ابتدع مذهباً يقال له التصوف ، وجعله مقر العقيدة الخبيثة " . [١٤٢]

ومن ذلك أيضاً ما نسب إلى الإمام عليّ الرضا (١٤٨ - ٢٠٣ هـ) أنه قال: " لا يقول بالتصوف أحد إلا لخدعة أو ضلالة أو حماقة . وأما من سمى نفسه صوفياً للتقية [١٤٣] فلا إثم عليه " [١٤٤] .

ومن ذلك أيضاً ما نسب إلى ملا صدرا شيرازي - المتوفى سنة ١٠٥٠هـ - أنه يرى أن الصوفية تركوا تعلم العلم والعرفان ورفضوا العمل بمقتضى الحديث والقرآن ، وعطلوا ما أعطاهم الله تعالى من المشاعر والمدارك عن أعمالها في سبيل الهداية والرشاد ، وحرّموا ما رزقهم الله - افتراءً عليه - لصرفها في غير ما خلق لأجله بسبب الجهل والفساد ، وأنهم مستغرقون في بحار

---

[١٤١] - انظر تاريخ التصوف الإسلامي من البداية حتى نهاية القرن الثاني - د/عبد الرحمن بدوي ص-٦٣.

[١٤٢] - انظر سفينة بحار الأنوار - عباس بن رضا القمي - ج-٢ - ص-٥٧ - ط حجر سنة ١٣٥٥هـ ، نقلاً عن تاريخ التصوف الإسلامي من البداية حتى نهاية القرن الثاني - ص-٦٤.

[١٤٣] - التقيّة : معناها المداراة ، وتقول بها أكثر فرق الشيعة ، كأن يحافظ الشخص على ماله وعرضه ودينه وعقيدته بالتظاهر باعتناق عقيدة لا يؤمن بها ولا يعترف بينه وبين نفسه بصحتها. انظر إسلام بلا مذاهب - د / مصطفى الشكعة - ص-١٩٦ .

[١٤٤] - سفينة بحار الأنوار - ج- ٢ - ص- ٥٨ ، نقلاً عن تاريخ التصوف الإسلامي - د / عبد الرحمن بدوي - ص- ٦٥ .

اللذات أسارى في أيدي الظلمات ، وادعى فيهم جمع من السفهاء والحمقى علم المعرفة ومشاهدة الحق والوصول إلى القرب ومعاينة الجمال الأحدي والفوز باللقاء السرمدي ، وحصول الفناء والبقاء مع أنهم لا يعرفون شيئاً من هذه المعاني إلا بالأسامي . [١٤٥]

ومن ذلك أيضاً ما نسب إلى ملا محسن فيض – المتوفى سنة ١٠٩١هـ – أحد تلاميذ ملا صدرا شيرازي ، أنه يرى أن بعض الصوفية يدعى أنه بلغ من التصوف والتأله حداً يقدر معه أن يفعل ما يريد بالتوجه وأنه يسمع دعاؤه في الملكوت ، ويستجاب نداؤه في الجبروت ، ويسمى بالشيخ والدرويش ، وأوقع بذلك الناس في التشويش ، ويفرطون في الاعتقاد فيه ويتجاوزون فيه حد البشر، ويصل الأمر ببعضهم أنه يدعي أنه يأتي في إخباره بما يترل مترلة الغيب فيقول : قتلت البارحة ملك الروم ، أو هزمت سلطان الهند . وقلبت عسكر النفاق أو صرعت فلاناً ، ويعني به شيخاً آخر نظيره . [١٤٦]

وتبطل الزيدية [١٤٧]من الشيعة منهج الصوفية – الذي يذهبون فيه إلى أن الطريق إلى اكتساب العلوم الدينية إنما يتم بالذوق أو الإلهام ، بعد تخلي النفس عن الأخلاق الذميمة ، وتصفيتها وتحليها بالخصال الحميدة عن طريق الرياضة الروحية والمجاهدة – فترى الزيدية استحالة أن تكون التجليات الإلهية التي يدعيها الصوفية تحصل بالضرورة ، فإن لم تكن ضرورية ، لزم أن تتم بالعلم النظري الذي ينكره الصوفية ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن التصفية والرياضة قد تحصلان لسائر المبطلين من فرق الملاحدة[١٤٨] والدهرية[١٤٩]، ومن ثم وجب أن تكون

١٤٥– سفينة بحار الأنوار – ج- ٢ – ص- ٥٩ ، نقلاً عن د / عبد الرحمن بدوي – ص- ٦٥ .

١٤٦– المرجع السابق – ج- ٢ – ص- ٦١ ، نقلاً عن د / عبد الرحمن بدوي – ص- ٦٦ .

١٤٧–الزيدية : هم أتباع زيد بن عليّ بن الحسين بن عليّ – رضي الله عنهم – ، ساقوا الإمامة في أولاد السيدة فاطمة – رضي الله عنها – ، ولم يجوزوا ثبوت إمامة في غيرهم ، إلا أنهم جوزوا أن يكون كل فاطمي عالم زاهد شجاع سخي خرج بالإمامة يكون إماماً واجب الطاعة سواء أكان من أولاد الحسن أم من أولاد الحسين . انظر الملل والنحل – الشهرستاني – ج-١ – ص-١٥٤،١٥٣ .

١٤٨– الملاحدة : هم الطاعنون في الدين ، المائلون عنه . .

١٤٩– الدهرية : هم الذين لا يؤمنون بالآخرة ، ويقولون ببقاء الدهر .

الاعتقادات التي اعتقدوها حقاً . أما وإنها باطلة ، ففي ذلك دليل على أن الرياضة والتصفية ليستا طريقاً إلى تحصيل المعارف الدينية . [١٥٠] ، هذه هي بعض آراء الشيعة تجاه التصوف والصوفية .

٣- من وجهة نظر أهل السنة :

كان أهل السنة والجماعة أشد الفرق هجوماً على التصوف والصوفية :

أ – وما قام به الإمام جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي البغدادي – المتوفى سنة ٥٩٧ هـ – يعد أوسع وأكبر هجوم من جانب أهل السنة على التصوف والصوفية ، وذلك في البابين العاشر والحادي عشر من كتابه : " تلبيس إبليس " ، ومن المآخذ التي أخذها أهل السنة على التصوف والصوفية كما أدرجها ابن الجوزي[١٥١] فيما يلي :

١- انصرفوا عن العلم إلى العمل ، وانصرفوا بخاصة عن علم القرآن والحديث إلى المواعظ والخطرات .

٢- قالوا بالحلول والاتحاد ، ووحدة الوجود .

٣- تجاوز الحد في أمور العبادات ، في الطهارة والصلاة .

٤- دعوا إلى الخروج عن الأموال والتجرد عنها .

٥- اتخذوا ملابس خاصة ، مثل الصوف والخرق أو المرقعات .

٦- اتخذوا أوضاعاً خاصة في الطعام والشراب ، من التقليل من الطعام وخشونته ، وامتنعوا عن شرب الماء البارد .

٧- اصطنعوا السماع والرقص والغناء، واستدعاء الوجد .

٨- أولعوا بصحبة الأحداث والنظر إلى المُرْد .

٩- دعوا إلى التوكل وقطع الأسباب ، وترك الاحتراز في الأموال ، وترك التداوي .

---

[١٥٠]- انظر الفرق الإسلامية وأصولها الإيمانية – د/ عبد الفتاح أحمد فؤاد – جـ٢ – ص-٣١٦ ، ٣١٧ – الناشر / دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر – الإسكندرية .

[١٥١]- انظر هذه المآخذ في كتاب : تلبيس إبليس – ص-١٤٥ – ٣٤٠ .

١٠- آثروا الوحدة والعزلة والانفراد عن الناس ، وفضلوا عدم النكاح لأنه – كما يعتقدون – يشغلهم عن طاعة الله عز وجل ، ودعوا إلى ترك طلب الأولاد .

١١- دعوا إلى السفر والسياحة ، لا إلى مكان معروف ، ولا إلى طلب علم ، وأكثرهم يخرج على الوحدة ، ولا يستصحب زاداً ، ويدعي بذلك الفعل التوكل .

١٢- الشطح ، والدعاوى ، والمخاريق ، والشعبذة وغير ذلك مما يرى ابن الجوزي أن الصوفية تجاوزوا الحد في هذه الأمور ، وخرجوا عن نطاق الشريعة ، وتعاليم الكتاب والسنة، والاقتداء بالرسول ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم وذلك من تلبيس إبليس عليهم – أي الصوفية – .

ب – ثم جاء الإمام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية – المتوفى سنة ٧٢٨هـ – ، وكانت له آراؤه الصوفية في كثير من كتبه ، وكان ابن تيمية يمدح الصوفية في موضع ، ويذمهم في كثير من المواضع ، فهو يبين الخلاف في الحكم عليهم فيقول: " وقد تنازع الناس في طريقهم : فطائفة ذمت الصوفية والتصوف وقالوا : إنهم مبتدعون خارجون عن السنة . وطائفة غلت فجعلت طريقهم أفضل الطرق " ثم يفصل في هذا الخلاف قائلاً : " والصواب أنهم يجتهدون في طاعة الله ، فمنهم المذنب والتقي ، وقد صارت الصوفية ثلاث طبقات : صوفية الحقائق ، وصوفية الأرزاق ، وصوفية الرسوم . فأما صوفية الحقائق فهم الذين وصفناهم ، وأما صوفية الأرزاق فهم الذين وُقِفَتْ عليهم الخوانق والوقوف فلا يشترط في هؤلاء أن يكونوا من أهل الحقائق . وأما صوفية الرسوم : فمنهم المقصودون المقتصرون على التشبه بهم في اللباس والآداب الوضعية ، فهم بمنزلة الذي يقتصر على زي أهل العلم " .[١٥٢]

ويتحدث ابن تيمية عن شيوخ من الصوفية ممتدحاً أحوالهم وأفعالهم : فيقول عن الجنيد : إنه من أحسنهم تعليماً وتأديباً وتقويماً ، ويدعو له عند ذكر اسمه ، ويصفه بما وصفوه به من أنه سيد الطائفة .[١٥٣]

١٥٢- انظر مختصر الفتاوى المصرية – ابن تيمية – ص- ٥٧١ ، ٥٧٢ – ط القاهرة – ١٩٤٩م

١٥٣- فتاوى ابن تيمية – ج-١٠ – ص- ٦٨٦ .

وكان يرى أن أبا طالب المكي كان أكثر اعتصاماً بالكتاب والسنة من ابن عربي وأمثاله.[١٥٤]

ويقول عن الحكيم الترمذي[١٥٥] في موازنة أقامها بينه وبين ابن عربي : "الغالب على كلامه الصحة بخلاف ابن عربي فإنه كثير التخليط لا سيما في الاتحاد" .[١٥٦]

ويقر ابن تيمية بكرامات الأولياء فيقول : " وكرامات الأولياء حق باتفاق أئمة أهل الإسلام والسنة والجماعة . وقد دل عليها القرآن في غير موضع ، والأحاديث الصحيحة والآثار المتواترة عن الصحابة والتابعين وغيرهم . . . لكن كثيراً ممن يدعيها أو تدعى له يكون كذاباً أو ملبوساً عليه. وأيضاً فإنها لا تدل على عصمة صاحبها ، ولا على وجوب اتباعه في كل ما يقوله . بل قد تصدر بعض الخوارق ، من الكشف وغيره ، عن الكفار والسحرة بمواخاتهم للشياطين . . . ولهذا اتفق أئمة الدين على أن الرجل لو طار في الهواء ومشي على الماء ، لم تثبت له ولاية ولا إسلام حتى ينظر وقوفه عند الأمر والنهي "[١٥٧] .

ويرى ابن تيمية أن " أعمال القلوب ، التي تسمى المقامات والأحوال ، وهي من أصول الإيمان وقواعد الدين : مثل محبة الله ورسوله ، والتوكل على الله ، وإخلاص الدين له ، والشكر له ، والصبر على حكمه ، والخوف منه ، والرجاء له ، وما يتبع ذلك . . . واجب على جميع الخلق المأمورين بأصل الدين ، باتفاق أئمة الدين " .[١٥٨]

١٥٤- المرجع السابق – ج-١٠ – ص- ٤٠٤ .

١٥٥- الحكيم الترمذي : هو أبو عبد الله محمد بن علي الترمذي ، كان – رضي الله عنه – إماماً في فنون العلم ، ومن الشيوخ المحتشمين ، وله تصانيف كثيرة طيبة مثل : كتاب " ختم الولاية " وكتاب " النهج " وكتاب " نوادر الأصول " وله كتب في علوم الظاهر ، واسناد عالٍ في الأحاديث . وكان قد بدأ تفسيراً ، فلم يف العمر بإتمامه ، ويسمونه في مدينة " ترمذ " من بلاد خراسان : محمد الحكيم ، ويقتدي به الحكيمية من المتصوفة . توفى رحمه الله سنة ٢٨٥هـ . انظر كشف المحجوب – ج-١ – ص-٣٥٣ .

١٥٦- فتاوى ابن تيمية – ج- ١١ – ٣٦٣ .

١٥٧ – مختصر الفتاوى المصرية – ص-٦٠٠ .

١٥٨- المرجع السابق – ص-٥٨٧ .

ويذهب ابن تيمية إلى أن جميع المقامات من الحب والخوف والرجاء . . . وغير ذلك ليست مقصورة على الخاصة المتقربين بالنوافل لأن : " جميع هذه الأمور فرض على الأعيان باتفاق أهل الإيمان " . (١٥٩)

على أن ابن تيمية وإن كان يمدح بعض الصوفية وبعض أفعالهم وأحوالهم فإنه يذم البعض الآخر وينكر على الصوفية قولهم بالسماع والسكر والحزن والرقص . . ونحو ذلك .

فيقول ابن تيمية عن السماع : " وأما سماع المكاء والتصدية وهو الاجتماع لسماع القصائد الربانية سواء كان بكف أو بقضيب أو بدف . . . فهذا لم يفعله أحد من الصحابة لا من أهل الصفة ولا من غيرهم ولا من التابعين بل إن القرون الثلاثة الأولى المفضلة . . . لم يكن فيهم أحد يجتمع على هذا السماع لا في الحجاز ولا في الشام ولا في اليمن ولا في العراق ولا مصر ولا خراسان ولا المغرب . وإنما كان السماع الذين يجتمعون عليه سماع القرآن وهو الذي كان الصحابة من أهل الصفة وغيرهم يجتمعون عليه " . (١٦٠)

وأما السكر والغناء وغيرها من الأمور التي تغيب العقل فيرى ابن تيمية أنه إذا لم يكن السبب محظوراً لم يكن السكران مذموماً ، بل معذوراً فإن السكران بلا تمييز . . . وقد يحصل بسبب تناول الخمر والحشيشة وذلك حرام بلا نزاع بين المسلمين ، ومن استحل السكر في هذه الحالة فهو كافر وقد يحصل السكر بسبب محبة الصور وعشقها . . . وهذا مذموم ، لأن بسببه محظور ، وقد يحصل بسبب سماع الأصوات المطربة التي تورث مثل هذا السكر ، وهذا أيضاً مذموم . . . وقد يحصل السكر بسبب لا فعل للعبد فيه ، كسماع لم يقصده يهيج قاطنه ، ويحرك ساكنه ، ونحو ذلك . وهذا لا ملام عليه فيه ، وما صدر عنه في حال زوال عقله فهو فيه معذور ، لأن القلم مرفوع عن كل من زال علقه بسبب غير محرم ، كالمغمى عليه ونحوهما . (١٦١)

وهناك من يقوى عليه الوارد حتى يصير مجنوناً ، إما بسبب خلط يغلب عليه ، أو غير ذلك ، وهناك عقلاء المجانين الذين يعدون في النساك ، وقد يسمون المولهين . قال فيهم بعض

١٥٩- نفس المرجع- ص- ١٢٤ .

١٦٠- مجموعة الرسائل والمسائل - ابن تيمية - ج- ١ - ص-٤٨، ٤٧ - دار الكتب العلمية - بيروت- لبنان - الطبعة الأولى - ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣ .

١٦١- فتاوى ابن تيمية - ج-١١ - ص- ١٠ ، ١١ .

العلماء : " هؤلاء قوم أعطاهم الله عقولاً وأحوالاً ؛ فسلب عقولهم ، وأسقط ما فرض لما سلب " . فهذه الأحوال التي يحدث منها السكر إذا كانت أسبابها مشروعة وصاحبها صادقاً عاجزاً عن دفعها كان محموداً على ما فعله من الخير وما ناله من الإيمان ، ومعذوراً لعجزه وعدم اختياره . . . ولكن من لم يزل عقله مع أنه قد حصل له من الإيمان ما حصل لهم أو مثله أو أكمل منه فهو أفضل منهم . وهذه حال الصحابة رضي الله عنهم ، وهو حال نبينا ﷺ حينما أسري به إلى السماء ، وأراه الله ما أراه من آياته الكبرى ، وأصبح ثابت العقل لم يتغير حاله ، فحاله أفضل من حال موسى عليه السلام الذي خر صعقاً لما تجلى ربه للجبل ، وحال موسى حال جليلة عليّه فاضلة ، لكن حال سيدنا محمد ﷺ أكمل وأعلا وأفضل .[١٦٢]

ويرى ابن تيمية أن الأسماء الدائرة على ألسنة كثير من النساك والعامة مثل: القطب الغوث [١٦٣] الذي يكون بمكة ، والأوتاد الأربعة [١٦٤] ، والأقطاب السبعة ، والأبدال الأربعين [١٦٥] ، والنجباء الثلاثمائة [١٦٦] ، ليست موجودة في كتاب الله ، ولا مأثورة عن النبي ﷺ ، لا بإسناد صحيح ولا ضعيف محتمل . . . ولا توجد هذه الأسماء في كلام السلف كما هي على هذا الترتيب ، ولا هي مأثورة على هذا الترتيب والمعاني عن المشايخ المقبولين عند الأمة قبولاً عاماً . [١٦٧]

١٦٢- المرجع السابق – ج-١١ – ص- ١٢ ، ١٣ .

١٦٣- القطب الغوث : عند الصوفية هو الإمام أو الخليفة أو الإنسان الكامل وهم الدعائم التي يقوم عليها صرح الوجود . انظر معجم ألفاظ الصوفية – د/ حسن الشرقاوي – ص-٢٣٥ .

١٦٤- الأوتاد : هم الذين يحفظ الله بهم العالم ، وهم كما يرى الصوفية يمثلون : عيسى وإدريس وموسى وهارون والخضر . انظر معجم ألفاظ الصوفية – ص- ٦٢ .

١٦٥- الأبدال : هم الذين يشاركون في حفظ نظام الكون ، وهم أهل فضل وكمال واستقامة ، ولهم مظاهر أربعة : الصمت والجوع والسهر والعزلة . انظر معجم ألفاظ الصوفية – ص-٢٢ .

١٦٦- النجباء : هم القائمون بإصلاح أمور الناس وحمل أثقالهم والمتصرفون في حقوق الخلق . انظر معجم ألفاظ الصوفية – ص- ٢٦٨ .

١٦٧- مجموعة الرسائل والمسائل – ج- ١ – ص-٥٧ .

وأما من قال : إن القطب ينطق علمه عن علم الله ، وقدرته عن قدرة الله ، فيعلم ما يعلمه الله ، ويقدر على ما يقدر عليه الله ، فإن هذا كفر قبيح وجهل صريح.[١٦٨]

واشتد هجوم ابن تيمية على الصوفية المتفلسفين القائلين بالاتحاد العام أو الحلول المطلق ، أو وحدة الوجود . ويرى ابن تيمية أنه ما سبقهم إلى ذلك إلا من أنكر وجود الصانع كفرعون والقرامطة ، إذ " إن حقيقة أمرهم أنهم يرون أن عين وجود الحق هو عين وجود الخلق ، وأن وجود ذات الله خالق السماوات والأرض هي نفس وجود المخلوقات ، فلا يتصور عندهم أن يكون الله تعالى خلق غيره ولا أنه رب العالمين ، ولا أنه غني وما سواه فقير " .[١٦٩]

ويرى ابن تيمية أن ما اشتمل عليه كتاب : " فصوص الحكم " لابن عربي من قوله بوحدة الوجود ، مركب من أصلين :

الأول : أن المعدوم شيء ثابت في العدم . . . .

الثاني : أن وجود المحدثات المخلوقات هو عين وجود الخالق ليس غيره ولا سواه . وهذا هو الذي ابتدعه ابن عربي وانفرد به عن جميع من تقدمه من المشايخ والعلماء ، وهو قول بقية الاتحادية ، إلا أن ابن عربي أقربهم إلى الإسلام وأحسن كلاماً في مواضع كثيرة ، حيث إنه يفرق بين الظاهر والمظاهر فيقر الأمر والنهي والشرائع على ما هي عليه ، وكثير من العباد يأخذون من كلامه سلوكهم فينتفعون بذلك وإن كانوا لا يفهمون حقائقه .[١٧٠]

وأما صاحبه الصدر الرومي[١٧١] فإنه كان متفلسفاً،فهو أبعد عن الشريعة والإسلام[١٧٢] ويرى ابن تيمية أن عفيف الدين التلمساني[١٧٣] أخبث القوم وأعمقهم في

١٦٨- مختصر الفتاوى المصرية - ص- ١٩٩ .

١٦٩- مجموعة الرسائل والمسائل - ابن تيمية - ج-١ - ص-١٨٠ .

١٧٠- المرجع السابق - ج-١ - ص-١٨٢ ، ١٨٣ .

١٧١- هو صدر الدين الرومي القونوي ، المتوفى سنة ٧٢٩هـ - ١٣٢٩م .

١٧٢- مجموعة الرسائل والمسائل - ج-١ - ص-١٨٣ .

١٧٣- عفيف الدين التلمساني : هو عفيف الدين سليمان بن عليّ بن عبد الله بن عليّ التلمساني ، الأديب الشاعر ، قيل : إنه أحد زنادقة الصوفية ، وله مؤلفات كثيرة منها : شرح أسماء الله الحسنى ، وشرح مواقف النفري ، وشرح الفصوص ، وله ديوان شعر ، مات سنة ٦٩٠هـ - ١٢٩١م ، وله ثلاثون سنة . انظر شذرات الذهب - ابن العماد الحنبلي - ج-٥ - ص-٤١٣،٤١٢ - ط دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان .

الكفر . فإنه لا يفرق بين الوجود والثبوت كما يفرق ابن عربي ، ولا يفرق بين المطلق والمعين كما فعل الرومي ، ولكن عنده ما ثَمّ غير ولا سوى بوجه من الوجوه . والعبد يشهد السوي ما دام محجوباً فإذا انكشف حجابه رأي أنه ما ثَمّ غير يبين له الأمر. ولذا كان يستحل جميع المحرمات ، حتى حكى عنه الثقات أنه كان يقول : البنت والأم والأجنبية شيء واحد ليس في ذلك حرام علينا ، وإنما هؤلاء المحجوبون قالوا: حرام . . وكان يقول : القرآن كله شرك وليس فيه توحيد وإنما التوحيد في كلامنا . وكان يقول : أنا ما أمسك شريعة واحدة . . . وله ديوان شعر قد صنع فيه أشياء وشعره في صناعة الشعر جيد ، ولكنه كما قيل : " لحم خنزير في طبق صيني " وصنف للنصيرية[١٧٤] عقيدة . وحقيقة أمرهم أن الحق بمنزلة البحر وأجزاء الموجودات بمنزلة أمواجه.[١٧٥]

ويرى ابن تيمية أن كلام ابن الفارض والبلباني[١٧٦] أقرب إلى كلام عفيف الدين التلمساني[١٧٧] .

ومن هنا نرى أن ابن تيمية يهاجم الأفكار والنظريات الدخيلة على التصوف . فعلى الرغم من ما يشاع من أن ابن تيمية يهاجم التصوف والصوفية إلا أن ذلك غير صحيح ، إذ إنه كما ذكرنا يمتدح الكثير من الصوفية الذين يسيرون على منهج الله تعالى ويلتزمون بالكتاب والسنة ، وهذا يبين أن ابن تيمية كان مع التصوف السني المعتدل .

١٧٤- النصيرية : فرقة من غلاة الشيعة ، أتباع محمد بن نصير النميري ، قالوا بنبوته ، كان يدعي انه نبي بعثه أبو الحسن العسكري ، كان يقول بالتناسخ والغلو في أبي الحسن ، ويقول فيه بالربوبية ، ويقول بإباحة المحارم ، ويحلل نكاح الرجال بعضهم بعضاً . انظر الموسوعة الفلسفية - ص-٤٨٣ .

١٧٥- مجموعة الرسائل والمسائل – ابن تيمية- ج-١ – ص-١٨٤ .

١٧٦- البلباني : هو من مشايخ شيراز ، وممن قال بوحدة الوجود ، وله شعر في هذا ، ومن شعره:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه عينه

ومنه أيضاً : وما أنت غير الكون بل أنت عينه ويفهم هذا السر من هو ذائقه

انظر مجموعة الرسائل والمسائل - ج-١ – ص-١٨٥ .

١٧٧- المرجع السابق – ج-١ – ص-١٨٥.

ج – ثم جاء ابن قيم الجوزية[١٧٨] تلميذ الإمام ابن تيمية ، وقال : إن من كيد الشيطان ما ألقاه إلى جهال المتصوفة من الشطح والطامات ، وأبرزه لهم في قالب الكشف من الخيالات فأوقعهم في أنواع الأباطيل والترهات . . . . وأوحى إليهم : أن وراء العلم طريقاً إن سلكوه أفضى بهم إلى كشف العيان وأغناهم عن التقليد بالكتاب والسنة . فحسن لهم رياضة النفوس وتهذيبها ، وتصفية الأخلاق والتجافي عما عليه أهل الدنيا ، وأهل الرياسة والفقهاء ، . . . وألقى الشيطان في قلوبهم بحسب ما هي مستعدة له من أنواع الباطل . . . حتى قالوا : لنا الكشف الباطن ولكم العلم الظاهر ، ولكم ظاهر الشريعة ، وعندنا باطن الحقيقة . . . فلما تمكن هذا من قلوبهم سلخها من الكتاب والسنة كما ينسلخ الليل من النهار ، ثم أحالها في سلوكهم على تلك الخيالات والشطحات ، وأنواع الهذيان .[١٧٩]

ويسلك ابن القيم مسلك ابن تيمية في تقدير من يراه من الصوفية متمسكاً بالكتاب والسنة ، وذلك مثل أبي عثمان سعيد بن إسماعيل النيسابوري الواسطي[١٨٠] الذي يقول عنه ابن القيم : إنه من جلة شيوخ القوم وعارفيهم . وكان يقال: في الدنيا ثلاثة ، لا رابع لهم: أبو عثمان

١٧٨–ابن قيم الجوزية : هو محمد بن أبي بكر بن أيوب بن حريز الزُّرعي الشمس الحنبلي العلامة ، ولد في سابع صفر سنة ٦٩١هـ ، وقرأ بالعربية على المجد التونسي وابن أبي الفتح البعلي ، والفقه والفرائض على ابن تيمية ، وسمع الحديث من التقي سليمان ، وأبي بكر بن عبد الدائم ، وأبي نصر الشيرازي ، وعيسى المطعم ، وصنف وناظر واجتهد وصار من الأئمة الكبار في التفسير والحديث والفروع والعربية ، ومات سنة ٧٥١هـ . انظر بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة - السيوطي - تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم - ج-١ - ص-٦٢،٦٣ - المكتبة العصرية للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان .

١٧٩– إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان – ابن القيم – تحقيق / مجدي فتحي السيد– ج-١ –ص-١١٧،١١٨ – ط دار الحديث – القاهرة – الطبعة السابعة – ١٤١٩هـ – ١٩٩٩م .

١٨٠– أبو عثمان النيسابوري الواسطي : هو أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الحيري ، كان من الري ، ومقيماً بنيسابور ، صحب شاه الكرماني ، ويحيى بن معاذ الرازي ، تزوج بنت أبي حفص الحداد الذي كان أستاذه ، ومات سنة ثمان وتسعين ومائتين من الهجرة . انظر الرسالة القيشرية- ص-٣٢.

النيسابوري بنيسابور . والجنيد ببغداد ، وأبو عبد الله بن الجلاء بالشام[١٨١] . وله كلام رفيع عال في التصوف والمعرفة . وكان شديد الوصية باتباع السنة ، وتحكيمها ولزومها . ولما حضرته الوفاة مزق ابنه قميصاً على نفسه . ففتح أبو عثمان عينيه ، وهو في السياق . فقال: يا بني خلاف السنة في الظاهر ، علامة رياء في الباطن .[١٨٢]

وعلى كلٍ فإن أصحاب التصوف السنى كانوا موضع تقدير علماء الكلام لا سيما الأشاعرة منهم ، فالفخر الرازي وهو أحد كبار الأشاعرة عد الصوفية فرقة من الفرق في كتابه : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين .

بل إن الذين أرخوا لحياته قالوا عنه : إنه تصوف في آخر حياته وغيره من العلماء كثير .

١٨١- أبو عبد الله بن الجلاء : هو أبو عبد الله أحمد بن يحيى الجلاء ، بغدادي الأصل ، وأقام بالرملة ودمشق ، وكان من أكابر مشايخ الشام ، صحب أبا تراب النخشبي ، وذا النون المصري ، وأبا عبيد اليسري . انظر الرسالة القيشرية - ص-٣٤ .

١٨٢- مدارج السالكين بين إياك نعبد وإياك نستعين - ابن القيم - تحقيق / محمد حامد الفقي ، محمد عبد الرحمن الطيب - ج-٢ - ص-٤١٨ ، ٤١٩ - المكتبة التوفيقية - القاهرة .

المبحث الثالث

شبهات أثيرت حول التصوف

والرد عليها

المبحث الثالث

شبهات أثيرت حول التصوف والرد عليها

هناك شبهات أثيرت حول التصوف والصوفية من قبل أولئك الذين لا يؤمنون إلا بما هو مادي محسوس أو علماني أو معقول والذين يشتركون جميعاً في أفكار كل ما هو روحي أو وجداني يسمو على أفق المادة ويخاطب في الإنسان روحه ووجدانه .

ومادام التصوف نزعة روحية وجدانية فلا غرو أن يكون موضع أفكار ورفض من أمثال هؤلاء وهؤلاء .

وسنعرض فيما يلي – وبإيجاز – لبعض ما أثير حول التصوف من شبه وما وجه إليه من اتهامات . مستخدمين المنطق الصحيح في كشف هذه الشبه ودحض هذه المزاعم . فنقول وبالله التوفيق :

الشبهة الأولى : يزعم بعض علماء النفس المحدثين الذين قاموا بدارسة التجربة الصوفية دراسة سيكولوجية – يزعمون أن أحوال الصوفية لاسيما ما يسمى بحال الفناء ليست في واقع الأمر – إلا حالات مرضية وإن أولئك الذين يمرون بتلك الأحوال – ليسوا – إلا مرضى مصابين بما يعرف لدى علماء النفس بمرض انفصام الشخصية ويأتي على رأس هؤلاء العلماء النفسانيين – لامب – الذي يؤكد على أن ما يسمى لدى الصوفية بالأحوال – ليس إلا حالات من الهلوسة أو الهذيان. هذه شبهة علماء النفس التجريبيين وهذا زعمهم .

والذي نود أن نذكره – هنا – أن هذه شبهة واهية وأن هذا الزعم لا أساس له من الصحة وذلك لما يلي :

أ- إن هناك فروقاً جلية وواضحة بين حال الفناء التي يستغرق فيها الصوفي وتضمحل فيها ذاتيته في ذاتية الحق – سبحانه – وبين حالات المرض النفسي من الهذيان أو الهلوسة أو انفصام الشخصية وذلك لأن الصوفي في حال فنائه لا يفقد استبصاره بنطقه كما أن هذه الحال لا تدوم لوقت يذكر ، كما أنها حالات شعورية بينما حالات المرض النفسي حالات لا شعورية وقد تستمر لفترات طويلة تستغرق ما بقي من عمر المريض .

إن المريض بالهذيان أو انفصام الشخصية يكون في حالة فقدان مستمر للشعور بلا مقابل . بل إنه لا يستطيع أن يحدد مركزه في عالم المدركات الخارجية أو يحكم أو يميز علاقاته بالآخرين .

ب – إن الأحوال النفسانية التي تصاحب الصوفي في معراجه الروحي كالمحو والسكر والفناء والغيبة ليست حالات سالبة فقط – بل هي – في الوقت نفسه – حالات موجبة ومن ثمّ فكل حالة من هذه الحالات يعقبها على الفور ضدها ، فالسكر يقتضي – على الفور – الصحو والغيبة يعقبها الحضور ، والمحو يستدعي الإثبات ، والفناء يتضمن البقاء .

ج– إن كثيرين من الصوفية في مثل هذه الأحوال يتصلون بالملأ الأعلى. وتنكشف لهم كثير من المعارف والحقائق التي لا يستطيع أن يراها الكثيرون من الأصحاء فكيف يكون هؤلاء مرضى !!

د – إننا نشاهد عظماء الفنانين والمبدعين يعانون كثيراً من حالات أشبه ما تكون بالجنون ويأتون بأمور يستنكرها كثير من العاديين ولم يقل أحد عنهم إنهم مرضى نفسيون أو إنهم مصابون بانفصام الشخصية .

الشبهة الثانية : اتهام آخر موجه إلى التصوف والصوفية خلاصته أن الصوفية يدعون إلى ما يسمى بإسقاط التكاليف الشرعية . . فيسقطون عن أتباعهم بعض الواجبات والعبادات الشرعية التي جاءت بها الشريعة ويزعمون أن طهارة الباطن تغني عن الظاهر .

ونقول : إننا حين ندافع عن التصوف والصوفية فإننا ندافع عن التصوف الإسلامي الصحيح المؤسس على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، التصوف الملتزم بالإسلام منهجاً وسلوكاً .

أما هذا النوع الذي يدعي أصحابه سقوط التكاليف عنهم أو أن الباطن يغني عن الظاهر . أو أن العبرة بالحقيقة دون الشريعة . فكل هذا لا يمت إلى التصوف الحق بصلة ما . إنه ضلال وإفك بعيدان كل البعد عن الإسلام فضلاً عن التصوف الإسلامي .

يقول الشيخ أبو الحسن الشاذلي : (من دعا إلى الله بغير ما دعا به رسول الله ﷺ فهو بدعي) ويقول أيضاً : (إذا لم يواظب الفقير على الصلوات الخمس في الجماعة فلا تعبأ به) ويقول أيضاً : (ما ثم كرامة أعظم من كرامة الإيمان ، ومتابعة السنة ... فمن أعطيهما وجعل يشتاق إلى غيرهما فهو عبد مفتر كذاب أو ذو خطأ في العلم والعمل بالصواب ...) .

ويقول أبو يزيد البسطامي – وهو إمام من كبار أئمة التصوف : (لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى يرتقي في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وأداء الشريعة) .

والإمام الجنيد وهو سيد الصوفية – كما يقول صاحب الرسالة القشيرية – يحدد – في دقة ووضوح – الصلة الوثيقة بين الشريعة والتصوف حيث يقول : (الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول ﷺ واتبع سنته والتزم طريقته) .

وقال أيضاً : (من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر لأن علمنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة) .

وحجة الإسلام أبو حامد الغزالي كان في قوله وفي سلوكه ، وفي حياته العامة والخاصة يلتزم بالشريعة ويقول : إن المحققين قالوا : (لو رأيت إنساناً يطير في الهواء ويمشي على الماء وهو يتعاطى أمراً يخالف الشرع فاعلم أنه شيطان)

وكيف لا يلتزم الصوفية بالشريعة وهم يتخذون من رسول الله ﷺ مثلهم الأعلى منفذين التوجيه القرآني ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ ﴾ (١٨٣) .

الشبهة الثالثة : اقام آخر يوجهه أعداء التصوف إلى التصوف والصوفية وذلك حيث يزعمون أن التصوف دعوة إلى السلبية والتواكل والهروب من مواجهة الواقع ومشكلات الحياة .

وفي الرد على هذا الزعم وتفنيده نقول وبالله التوفيق : إن التوكل مقام من مقامات الصوفية والتوكل الصوفي يشرحه ذو النون المصري فيقول : (التوكل اعتماد القلب على الله مع عدم الاضطراب عند فقدان الأسباب الموضوعة في العالم والتي من شأن النفوس أن تركن إليها فإن اضطرب – أي الصوفي – فليس بمتوكل) .

إن التوكل الحقيقي الذي يؤمن به الصوفية توكل إيجابي يواجه به الصوفي حياته ومتطلباتها بلا سرف أو تقتير . والصوفي الحقيقي يضرب المثل في العمل والسعي لكسب القوت الحلال ، ومن ثم رأينا كبار الصوفية يعملون ويحترفون لمعاشهم ويدبرون أمر أنفسهم في منطق متوازن لا يضيع الدين لحساب الدنيا ولا يهمل الدنيا أو يعتزل الحياة باسم الدين ، حقاً إنه الزاهد ولكن ليس عن حاجة أو احتياج ولكن الزاهد عن غنى واقتدار ، إن التوكل الصوفي لا يعرف السلبية أو العفوية . ولكنه توكل التدبير ، فالتوكل كمقام صوفي يرتبط بالتدبير أشد الارتباط – على حد

---

١٨٣ – سورة الأحزاب – الآية ٢١ .

تعبير ابن عطاء الله السكندري وفهمه . حيث يقرر أن الصوفي يفهم التوكل على أنه محض الاعتماد على الله واللجوء إليه . والاستعانة به مع التزام كامل بالأسباب ، والتدبير الواعي لكل الأمور وقد فرق ابن عطاء الله السكندري بين نوعين من التدبير:

أحدهما : التدبير المحمود ويعني به كل تدبير يقرب الإنسان من ربه . كأن يدبر الإنسان لنفسه عملاً يقوم به ، أو يتعلم حرفة يعيش منها ليعف نفسه ويربي أولاده ويؤدي حق الله عليه .

ثانيهما : التدبير المذموم . وهو الذي يكون القصد منه تحصيل حظوظ النفس من الاشتغال بالشهوات والوقوع في المعاصي ، والبحث عن الشهرة وذيوع الصيت . ولو كانت العبادة هي الوسيلة لذلك .

إن الصوفي مؤمن والمؤمن كيس فطن . والفطانة تقتضي الحكمة وسداد الرأي ووضع الأمور في نصابها . يقول صاحب عوارف المعارف . الإمام السهروردي : (والصوفي يضع الأشياء مواضعها ويدبر الأوقات والأحوال كلها بالعلم ، يقيم الخلق مقامهم ، ويقيم أمر الحق مقامه ، ويستر ما ينبغي أن يستر ، ويظهر ما ينبغي أن يظهر ويأتي بالأمور في مواضعها بحضور عقل ، وصحة توحيد وكمال معرفة ، ودعاية صدق وإخلاص). [184] لقد اتخذ الصوفية من الرسول ﷺ المثل الأعلى في كل شيء . . وفي كل ميدان .

ففي الجهاد في سبيل الله كانوا في مقدمة المجاهدين يحملون أسلحتهم دفاعاً عن الدين والوطن ويجابهون الأعداء في شجاعة وإقدام إذ باعوا أنفسهم لله عز وجل . ومن قمم المجاهدين منهم . شقيق البلخي وحاتم الأصم .[185] وفي معركة المنصورة التي كانت بين المسلمين والفرنسيين بقيادة لويس التاسع . يحدثنا التاريخ عن صوفي جاوز الستين من عمره وقد كف بصره يسير مخترقاً صفوف المجاهدين يحدثهم عن الجهاد والشجاعة ويحبب إليهم الشهادة ويصرخ فيهم هلموا إلى جنة عرضها السموات والأرض . إنه الشيخ أبو الحسن الشاذلي الصوفي الكبير وإمام الطريق . ولا

---

[184]- عوارف المعارف – ج-١ – ص-٢٣٢ .

[185]- حاتم الأصم : هو أبو عبد الرحمن حاتم بن علوان ، ويقال حاتم بن يوسف الأصم ، من أكابر مشايخ خراسان ، وكان تلميذ شقيق البلخي ، وأستاذ أحمد بن خضرويه ، قيل : لم يكن أصم وإنما تصامم مرة فسمي به . مات بقرية من قرى ما وراء النهر اسمها " واشجرد " سنة ١٣٧هـ . انظر طبقات الصوفية – ص-٩١ ، والرسالة القشيرية – ص-٢٦ .

ينسى التاريخ وما ينبغي له أن ينسى ذلك البطل الصوفي والمجاهد الكبير عبد القادر الجزائري هذا الأمير القائد الذي دوَّخ الاستعمار الفرنسي ووضع الأعاجيب فضرب بـه المثـل في الـشجاعة والإقدام .

لقد كانوا فرسان الحياة في جميع الميادين يتوكلون على الله ويلجأون إليه في كل شـيء ولكنهم – أبداً – لم يكونوا سلبيين ولا متواكلين .

الشبهة الرابعة : اتهام آخر يوجه إلى الصوفية وهو أنهم قوم يعادون الغني ولا يهتمـون بضرورات الحياة والدليل على ذلك أنهم يحبون الفقر ، ويسمون أنفسهم بالفقراء ، ويعدون الفقر مقاماً من أهم مقاماتهم على الطريق .

ونرد على هذا الزعم الباطل باختصار فنقول وبالله التوفيق . .

أولاً : لم يقدر أحد العمل والمهنة أجل التقدير كما قدره الصوفية إنهم في اقتدائهم برسول الله ﷺ أحبوا العمل وأخلصوا له . وامتهنوا المهن . واحترفوا الحرف وكانت لهم ألقاب تدل على مهنهم وحرفهم كالقصاب ، والوراق ، والحلاج ، والبزاز ، والزجاجي ، والخراز ، والخـواص ، والحصري ، والصيرفي ، والفراء ونحو ذلك من الألقاب التي تدل على مهنة أصحابها .

ثانياً : كان الصوفية – ولا يزالوان – يتفاوتون في المعايش وحظوظ الحياة كغيرهم من الناس . فيهم من يملك الثروات الضخمة التي يؤدي حق الله فيها . . فأبو الحسن الشاذلي وهو من صفوة الصفوة من الصوفية كانت له مزارع واسعة وتجارات وثروات ولكن مع ذلك كان عازفـاً عن الدنيا زاهداً في كل متعها وزيفها نعم هو مالكها . وهي لا تملكه . إن الـصوفي – دائمـاً – متحرر من العبودية للأشياء والعبودية للمنافع ، والعبودية للسلطة لأنه قد استغنى عن ذلك كله . وسيطر على ذلك كله بعبوديته الخالصة لله . ولقد كان من دعاء الشاذلي المشهور قوله :

" اللهم وسِّع عليّ رزقي في دنياي ولا تحجبني بها عن أخراي " ومن دعائه أيضاً : " اللهم اجعلها – أي الدنيا – في أيدينا ولا تجعلها في قلوبنا " ولقد كان فقيرهم – دائماً – عزيز النفس لا يمد يده لأحد ولا يأخذ شيئاً من أحد – أما غنيهم فإنه كان زاهداً – محسناً – لا يطغيه المـال ولا تستعبده الدنيا ويجعل كل ما يملكه في سبيل الله عز وجل يؤمن – تماماً– بأن الله سائله عن ماله من

أين اكتسبه وفيما أنفقه . إنهم دائماً يحققون قول الباري عز وجل : ﴿ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ .[١٨٦]

ونعيش مع ابن عطاء الله السكندري في كتابه القيم (لطائف المنن) وهو يقص علينا قصة أحد أغنياء الصوفية الذي حقق هذه الآية فلم يمنعه ثراؤه الضخم وجاهه العريض أن يكون صوفياً.

يقول ابن عطاء السكندري ﷺ : " قال بعض المشايخ : كان رجل بالمغرب من الزاهدين في الدنيا ، ومن أهل الجد والاجتهاد ، وكان عيشه بما يصيده من البحر ، وكان الذي يصيده يتصدق ببعضه ويقوت ببعضه ، فأراد أحد أصحاب هذا الشيخ أن يسافر إلى بلد من بلاد المغرب ، فقال له هذا الشيخ : إذا دخلت إلى بلد كذا فاذهب إلى أخي فلان فأقرئه مني السلام واطلب الدعاء منه لي ؛ فإنه ولي من أولياء الله تعالى .

قال فسافرت حتى قدمت تلك البلدة ، فسألت عن ذلك الرجل ، فدللت على دار لا تصلح إلا للملوك فتعجبت من ذلك ، فطلبته فقيل لي : هو عند السلطان ، فازداد تعجبي ، وبعد ساعة ، وإذا هو آت في أفخر ملبس ومركب وكأنما هو ملك في موكبه . قال فازداد تعجبي أكثر من الأول ، قال فهممت بالرجوع وعدم الاجتماع به ، ثم قلت لا يمكنني مخالفة الشيخ ، فاستأذنت عليه فأذن لي ، فلما دخلت رأيت ما هالني من العبيد والخدم والشارة الحسنة فقلت له : أخوك فلان يسلم عليك ، قال: جئت من عنده ؟ قلت : نعم ، قال : إذا رجعت إليه قل له : إلى كم اشتغالك بالدنيا ؟ وإلى كم إقبالك عليها ؟ وإلى متى لا تنقطع رغبتك فيها ؟ فقلت : هذا والله أعجب من الأول .

فلما رجعت إلى الشيخ قال : اجتمعت بأخي فلان ؟ قلت : نعم ؟ قال : فما الذي قال لك ؟ قلت : لا شيء . قال : لابد أن تقول لي . فأعدت عليه ما قاله ، فبكى طويلاً وقال : صدق أخي فلان هو غسل الله قلبه من الدنيا وجعلها في يده وعلى ظاهره ، وأنا أخذها من يدي وعندي إليها بقايا التطلع . . "[١٨٧] هذا هو الزهد . يملك الدنيا ولا تملكه الدنيا .

---

[١٨٦] - سورة الحديد - الآية ٢٣ .

[١٨٧] - لطائف المنن : ابن عطاء الله السكندري - تحقيق د/ عبد الحليم محمود -ص- ٢٢٨ -٢٢٩ - ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .

ثالثاً : إن الفقر الذي يعنيه الصوفية ويعدونه مقاماً من مقامات الطريق لا يعني عدم ملكية الصوفي للأشياء وإنما يعني دوام افتقار الصوفي إلى ربه في كل وقت وكل عمل ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَ اللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (١٨٨).

إن الصوفي الحقيقي إنسان تقي نقي يلتزم بشرع الله . ويحترم العلم ويحافظ على حسن مظهره تحدثاً بنعمة الله عليه . يتقدم الصفوف في الجهاد ، ويسبق الناس إلى العمل ، لا يتوانى ، ولا يتواكل ، ولا يتكاسل ، ولا يفرض نفسه على الناس ، ولا يسأل أحداً شيئاً ولا يخشى في الله لومة لائم ينصح لله ولرسوله ولكتابه ويأمر بالمعروف وينهي عن المنكر . ليس بثرثار ولا شتام ولا متهور ولا يتحدث عن صوفيته . ويستتر من كراماته ، يصبر على الناس ويصابرهم دائم الذكر قليل الكلام إلا فيما يفيد وينفع ، طيب السيرة حسن السريرة رقيق الإحساس شديد الحياء من الله ورسوله ، حديثه علم وذكر وصمته تدبر وفكر إنه بالجملة عبد رباني في كل شيء .

يقول سهل بن عبد الله التستري وهو أحد كبار أئمة التصوف : (أصول طريقنا سبعة : التمسك بالكتاب ، والاقتداء بالسنة ، وأكل الحلال ، وكف الأذى ، وتجنب المعاصي ، ولزوم التوبة ، وأداء الحقوق) .

١٨٨- سورة فاطر - الآية ١٥ .

تعقيب :

وبعد هذا العرض لموقف العلماء من التصوف والصوفية ، والشبهات التى أثيرت حول التصوف الإسلامى ، أقول : إذا كان هناك من ينظر إلى الصوفية نظرة الشك والريبة فى اتباعهم الكتاب والسنة ، فإن أكابر الصوفية كان تصوفهم يعرف بالتصوف السنى ، وهو يوازى درجة الإحسان التى تلى الإسلام والإيمان ، والتى تتمثل فى مزيد من الإخلاص فى العبادة ، واتباع سنة النبى ﷺ والاقتداء بالسلف الصالح . حيث يتخلى الصوفى عن كل ما يشغله بالله عن الله ، ويرقبه فى كل حركاته وسكناته، كأنه يشهد الحق فى كل تصرف من تصرفاته ، وإنه يعبد الله كأنه يراه ، ويتحلى الصوفى بكل الفضائل التى تقربه إلى الله وتجعل منه عبداً ربانياً خالص النزعة ، خالص الاتجاه ، خالص القلب بالكلية ، كأنه يحيا بالله ويعيش به لا يشغله شاغل ولا يصرفه صارف ، وهو فى كل هذا إنما يقتدى بالرسول ﷺ وبالسلف الصالح من الصحابة والتابعين .

وهناك الكثير من الصوفية الذين التزموا بتعاليم الشرع ، إذ إنهم استمدوا زهدهم وتقشفهم ومجاهداتهم وأحوالهم من الكتاب والسنة ، واتخذوا النبى ﷺ والصحابة الكرام ، نماذج ومثلاً عليا فى أخلاقهم وصفاتهم وأعمالهم وأحوالهم وأقوالهم .

١ ــ فإذا نظرنا إلى الإمام الحسن البصرى نرى أنه كان مثالاً يحتذى به فى الزهد فى الدنيا ، والإعراض عن مباهجها وزخارفها ، والإقبال على الله تعالى ، والتوكل عليه ، والخوف منه سبحانه ، ولذلك يقول:

" إن الدنيا دار عمل من صحبها بالنقص لها والزهادة فيها سعد بها ونفعته صحبتها ، ومن صحبها على الرغبة فيها والمحبة لها شقى بها وأجحف بحظه من الله عز وجل ثم أسلمته إلى مالا صبر له عليه ولا طاقة له به من عذاب الله ، فأمرها صغير ومتاعها قليل، والفناء عليها مكتوب "[١٨٩] . ويقول : " إن المؤمن يصبح حزيناً ويمسى حزيناً ولا يسعه غير

([١٨٩]) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ــ أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهانى ــ ج٢ ــ ص ١٤٠ ــ ط مطبعة السعادة ــ القاهرة ١٩٣٢م .

ذلك ، لأنه بين مخافتين ، بين ذنب قد مضى لا يدرى ما الله يصنع فيه ، وبين أجل قد بقى لا يدرى ما يصيب فيه من المهالك "[١٩٠] .

فالحسن بالبصرى بحق كان يمثل "انموذجاً" واضحاً فى العبادة والزهد والخوف من الله عز وجل ، وبذلك يعد فى طليعة العباد والزهاد التى يعتبرها مؤرخو الصوفية بداية المرحلة الأولى لنشأة التصوف الإسلامى .

٢ ــ وأبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى ، المتوفى سنة ٢٤٣هـ ، الذى كان عديم النظر فى زمانه علماً وورعاً ومعاملة وحالاً[١٩١] . كان من أعلم مشايخ القوم بعلوم الظاهر والباطن ، وعلوم المعاملات والإشارات[١٩٢] . وكان رحمه الله لألوان الحق مشاهداً ومراقباً ، ولآثار الرسول ﷺ مساعداً ومصاحباً ... وكان فى علم الأصول راسخاً وراجحاً ، وعن الخوض فى الفضول جافياً وجانحاً ، وللمخالفين الزائغين قامعاً وناطحاً ، والمريدين وللمنيبين قابلاً وناصحاً[١٩٣] . وكان جميع أهل العلم فى زمانه يتولونه ويقتدون به[١٩٤] . وكان المحاسبى مثلاً يهتدى به فى محاسبة النفس ، إذ روى: أنه ــ أى المحاسبى ــ كان يضرب بقدمه بالدرة إذا جنه الليل ، ويقول لنفسه : ماذا عملت اليوم؟[١٩٥] .
وكان يقول عن الزهد : هو العزوف عن الدنيا ولذاتها وشهواتها، فتنصرف النفس وتميل إلى ما دعا الله إليه ، وينقطع العبد إلى خدمة المولى ، يضن بنفسه عن خدمة الدنيا مستحياً من الله أن يراه خادماً لغيره ، فيلبسه الله رداء عمله ، ويعتقه من عبوديتها[١٩٦] .

---

(١٩٠) المرجع السابق ــ ج٢ ــ ص١٣٢ .

(١٩١) الرسالة القشيرية ــ ص٢٠ .

(١٩٢) طبقات الصوفية ــ أبو عبد الرحمن السلمى ــ ص ٥٦ .

(١٩٣) حلية الأولياء ــ ج١٠ ــ ص ٧٣ ، ٧٤ .

(١٩٤) كشف المحجوب ــ ج ١ ــ ص ٣١٩ .

(١٩٥) الرعاية لحقوق الله ــ المحاسبى ــ تحقيق د/ عبد الحليم محمود ــ ص٤٨ ــ ٥١ ــ ط دار المعارف ــ الطبعة الثانية .

(١٩٦) حلية الأولياء ــ ج١٠ ــ ص ٨٥ .

فكان رحمه الله يعد بحق أنموذجاً فريداً للتصوف السنى وللتصوف المعتدل ، المقتدى بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ .

٣ — وأبو القاسم الجنيد المتوفى سنة ٢٩٧هـ الذى كان متمسكاً بالكتاب والسنة ، إذ قال : " علمنا مضبوط بالكتاب والسنة ، من لم يحفظ القرآن الكريم ولم يكتب الحديث ولم يتفقه لا يقتدى به "[١٩٧] .

وقال أيضاً : " الطرق كلها مسدودة على الخلق ، إلا من اقتفى أثر الرسول ﷺ ، واتبع سنته ، ولزم طريقته فإن طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه "[١٩٨] وكان يقول عن التصوف : " ما أخذنا التصوف عن القيل والقال ، لكن عن الجوع ، وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات ، لأن التصوف هو صفاء المعاملة مع الله تعالى، وأصله التعزف عن الدنيا ، كما قال حارثة : " عزفت نفسى عن الدنيا ، فأسهرت ليلى وأظمأت نهارى "[١٩٩] ولقد كان رحمه الله كثيراً الطاعة والعبادة ، إذ قيل : انه " كان يدخل كل يوم حانوته ويسبل الستر ويصلى أربعمائة ركعة ثم يعود إلى بيته "[٢٠٠] .

وروى أن ورد الجنيد فى كل يوم كان ثلاثمائة ركعة ، وثلاثين ألف تسبيحة . "[٢٠١] .

٤ — والإمام عبد الكريم بن هوازن القشيرى المتوفى سنة ٤٦٥هـ فى كتابه " الرسالة القشيرية " نرى أنه متجه لتصحيح التصوف على أساس عقيدة أهل السنة ، ويرى أن مشايخ الصوفية بنوا قواعد أمرهم على أصول صحيحة فى التوحيد ، وابتعدوا عن البدع وساروا على ما سار عليه السلف وأهل السنة من التوحيد الذى يخلو من التمثيل

---

(١٩٧) حلية الأولياء — ج١٠ — ص ٢٥٥ .

(١٩٨) طبقات الصوفية — ص ١٥٩ ، وحلية الأولياء — ج١٠ — ص ٢٥٧، والرسالة القشيرية — ص ٣٢ ، وصفة الصفوة — ج٢ — ص ٢٧٠ .

(١٩٩) طبقات الصوفية — ص ١٥٨ ، وحلية الأولياء — ج١٠ — ص ٢٧٧، ٢٧٨، والرسالة القشيرية — ص ٣١ .

(٢٠٠) الرسالة القشيرية — ص ٣٢ ، وصفة الصفوة — ج٢ — ص٢٧٠ .

(٢٠١) صفة الصفوة — ج٢ — ص ٢٧٠ .

والتعطيل . وينقد الإمام القشيرى صوفية عصره لتمسكهم بلباس الفقراء والصوفية مع مخالفة لباسهم لأفعالهم[٢٠٢] .

وبذلك فالقشيرى يرجع بالتصوف إلى الكتاب والسنة .

٥ ــ والإمام أبو إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصارى الهروى، الذى كان صوفياً صاحب اتجاه سنى ، وله كتاب " منازل السائرين إلى رب العالمين " الذى وصف فيه مقامات ومنازل الطريق الصوفى ، وجعل له بداية ونهاية .

٦ ــ والإمام أبو حامد الغزالى ، الذى كان يعد أبرز وأكبر مدافع فى الإسلام عن التصوف السنى ، والذى اتجه بالتصوف اتجاهاً إصلاحياً يرجع به إلى الكتاب والسنة،والعمل على تنقيته من الانحرافات والبدع التى ظهرت على يد بعض صوفية القرن الثالث والرابع الهجريين.

وغير هؤلاء كثير من الصوفية الذين اتجهوا بالتصوف وأرجعوه إلى الكتاب والسنة وهذا هو الذى نؤيده ونحض عليه بعيداً عن أصحاب التصوف الفلسفى المملوء بالشطحات والترهات والافتراءات ، وهذا التصوف هو ما نرفضه وننهى عنه ، ولا نرتضى إلا التصوف المستمد من الكتاب والسنة .

ولا يزال التصوف السنى الملتزم بمنهج الإسلام كتاباً وسنة ، وبسيرة الصحابة والتابعين سلوكاً ومنهجاً يؤدى فى العصر الحديث دوراً تربوياً إسلامياً تنويرياً ، يتربى فيه أتباعه ومريدوه على يد شيوخ أجلاء يعدون للإسلام فى كل عصر ومصر أجيالاً من المؤمنين الصادقين ، ولقد عرفت الساحة الإسلامية فى العصر الحديث كثيراً من هؤلاء الشيوخ الأجلاء الذين ملأوا حياة الناس علماً ونوراً وتقوى وهدى ، ويكفى أن نشير إلى أسماء الشوامخ منهم ، من أمثال : الأستاذ الدكتور / عبد الحليم محمود، الذى خلف وراءه جيلاً رائعاً من أبنائه وتلاميذه ومريديه ، وخلف للمكتبة الإسلامية أكثر من ستين كتاباً فى شتى مجالات المعرفة العقلية والصوفية.

---

(٢٠٢) انظر الرسالة القشيرية ــ ص ٢ ، ٣ .

وكذا رينو جينو ، أو الشيخ عبد الواحد يحيى ، الأوربى المسلم الذى يعرف العالم كله ـــ لاسيما الغرب ـــ فضله ورجاحة عقله وسعة علمه .

وكذا الأستاذ الدكتور / أبو الوفا الغنيمى التفتازانى . والأستاذ/ حسن كامل الملطاوى.

ورواد العشيرة المحمدية ... وغيرهم من الشوامخ الذين كان لهم الأثر البارز فى حياة الناس فى عصرنا الحديث .

الخاتمة

نستخلص مما عرضنا في البحث ما يلي :

١. إن كلمة " تصوف " مشتقة من الصوف ، ولذلك كان يطلق على أتباع التصوف صوفية ، فيقال : تصوف إذا لبس الصوف، كما يقال : تقمص إذا لبس القميص .

٢. إن تعريفات التصوف في الاصطلاح تعددت وتنوعت واختلفت ، فهناك تعريفات من الجانب الأخلاقي كما ذكر الكتاني : التصوف خلق ، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الصفاء " وهناك تعريفات أخرى من جانب الزهد ، وذلك مثل ما ذكر معروف الكرخي : "التصوف الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق فمن لم يتحقق بالفقر لم يتحقق بالتصوف " وهناك تعريفات من جانب العبادة مثل ما ذكر رويم: " التصوف : الجلوس مع الله بلا هم ، وهناك تعريفات من جانب الوسيلة والغاية مثل قول الجنيد البغدادي : " التصوف هو أن يميتك الحق عنك ويحيك به " .

٣. إن الصوفي هو من صفت نفسه وصفا قلبه من الشوائب البشرية، فأخذ يتدبر ويتفكر ، وأشغل قلبه وفكره ، ونفسه بالله، وزهد في الدنيا ، وما فيها من متاع زائل .

٤. إن التصوف في العهد الأول للإسلام لم يكن معروفاً لا باسمه ولا برسمه ولا بسلوكه ولا كعلم له أسسه وأصوله ، وإنما كانت له إرهاصات كمقدمة لابد منها ، وهي التي تمثلت في الزهد الذي كان موجوداً منذ عهد النبي ﷺ ، وإنما عرف باسم التصوف في نهاية القرن الثاني الهجري على وجه التقريب .

٥. إن موضوع التصوف هو الذات العلية ، وقيل موضوعه النفوس والقلوب والأرواح .

٦. اعتبر المتصوفة أن التصوف من أفضل العلوم ، لأنه لما كان موضوعة الذات العلية ، وهي أفضل على الإطلاق ، فالعلم الذي يتعلق بها أفضل على الإطلاق .

٧. يرى الصوفية أن التصوف كلي للعلوم وشرط فيها ، إذ لا علم ولا عمل إلا بصدق التوجه إلى الله تعالى ، فالإخلاص شرط في الجميع.

٨. إن فائدة التصوف كما ذكر الصوفية تتمثل فى تهذيب القلوب ، ومعرفة علام الغيوب .

٩. إن للتصوف خصائص تميزه عن العلوم الأخرى وهى : الترقى الخلقى، والفناء فى الحقيقة المطلقة ، والعرفان الذوقى المباشر، والطمأنينة أو السعادة ، والرمزية فى التعبير .

١٠. ذم كثير من الفقهاء والمحدثين ـــ من أمثال : الإمام مالك بن أنس والإمام الشافعى ، والإمام أحمد بن حنبل وغيرهم ـــ التصوف والصوفية ، وكان يرون أن الصوفية يمعنون فى الباطن ويسرفون فى التحدث عما فيه من ضمير يستلهمونه المعرفة من ناحية ، والحكم على الأعمال من ناحية أخرى .

١١. إن الخوارج أخذوا على الصوفية إطاعتهم للسلطان الجائر : وأخذوا عليهم قولهم : إن النية أفضل من العمل .

١٢. إن الشيعة نسبت إليهم أقوال هاجموا فيها التصوف والصوفية .

١٣. إن أهل السنة والجماعة وبخاصة ابن الجوزى ـــ كانوا من أشد المتكلمين هجوماً على التصوف والصوفية . أما ابن تيمية فإنه ذم التصوف البدعى ومدح الكثير من أعمال كبار الصوفية كالجنيد وأبى طالب المكى والحكيم الترمذى .

١٤. هناك شبهات أثيرت من أصحاب المذهب المادى المحسوس أو العلمانى أو المعقول ومن علماء النفس المحدثين حول التصوف ، واستطعنا بحول الله وقوته أن نرد على هذه الشبهات ونفندها حتى يتضح الحق من الباطل .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

المصادر والمراجع

القرآن الكريم ــ كتاب الله تعالى ٠

١. إحياء علوم الدين ــ للإمام أبي حامد الغزالي ــ تحقيق / الشحات الطحان ، عبد الله المنشاوي ــ الناشر / مكتبة الإيمان بالمنصورة ــ ط دار النصر للطباعة الإسلامية ــ شبرا مصر ــ الطبعة الأولى ــ ١٤١٧هـ ــ ١٩٩٦م ٠

٢. إسلام بلا مذاهب ــ د/ مصطفى الشكعة ــ طبعة خاصة عن الدار المصرية اللبنانية ضمن مشروع مكتبة الأسرة ــ تنفيذ الهيئة المصرية العامة للكتاب ٠

٣. إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ــ ابن القيم ــ تحقيق/ مجدى فتحى السيد ــ ط دار الحديث ــ القاهرة ــ الطبعة السابعة ــ ١٤١٩هـ ــ ١٩٩٩م ٠

٤. إيقاظ الهمم فى شرح الحكم ــ أحمد بن محمد بن عجيبة الحسنى ــ ط مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر ــ الطبعة الثالثة ــ ١٤٠٢هـ ــ ١٩٨٢م ٠

٥. البداية والنهاية ــ للإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير ــ ط مكتبة المعارف ــ بيروت ــ الطبعة الرابعة ــ ١٩٨٢م ٠

٦. البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ــ للإمام محمد بن على الشوكانى ــ ط مطبعة السعادة ــ القاهرة ــ الطبعة الأولى ــ ١٣٤٨هـ ٠

٧. بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة ــ للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطى ــ تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم ــ المكتبة العصرية للطباعة والنشر والتوزيع ــ بيروت ــ لبنان ٠

٨. تاريخ التصوف الإسلامى من البداية حتى نهاية القرن الثانى ــ د/عبد الرحمن بدوى ــ الناشر / وكالة المطبوعات ــ الكويت ــ الطبعة الثانية ــ ١٩٧٨م ٠

٩. تاريخ التصوف فى الإسلام ــ د/ قاسم غنى ــ ترجمه عن الفارسية/ ــ صادق نشأت ــ مكتبة النهضة المصرية ٠

١٠. تاريخ الفكر الفلسفى فى الإسلام ــ الحركة الصوفية فى الإسلام ــ د/محمد على أبو ريان ــ ط دار المعرفة الجامعية ــ الإسكندرية ١٩٩٥م ٠

١١. تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة ــ أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى ــ عالم الكتب ــ بيروت ــ الطبعة الثانية ــ ١٤٠٣هـ ــ ١٩٨٣م ٠

١٢. التصوف الإسلامى فى الأدب والأخلاق ــ د/ زكى مبارك ــ المكتبة العصرية للطباعة والنشر ــ صيدا ــ بيروت ــ لبنان ٠

١٣. التصوف الإسلامى قضاياه ومشكلاته ــ د/ إبراهيم محمد إبراهيم ــ مطبعة الأمانة ــ شبرا ــ مصر ٠

١٤. التصوف الإسلامى والإمام الشعرانى ــ طه عبد الباقى سرور ــ مكتبة نهضة مصر ــ القاهرة ٠

١٥. التصوف الثورة الروحية فى الإسلام ــ د/ أبو العلا عفيفى ــ ط دار المعارف ــ الطبعة الأولى ــ ١٩٦٣م ٠

١٦. التعرف لمذهب أهل التصوف ــ أبو بكر محمد بن إسحاق البخارى الكلاباذى ــ تحقيق / محمود أمين النواوى ــ الناشر / مكتبة الكليات الأزهرية ــ القاهرة ــ الطبعة الثانية ــ ١٤٠٠هـ ــ ١٩٨٠م ٠

١٧. تلبيس إبليس ــ أبو الفرج بن الجوزى ــ تحقيق/ صلاح عويضة ــ ط دار المنار بالقاهرة ــ ودار فياض بالمنصورة ــ الطبعة الثانية ١٤١٩هـ ــ ١٩٩٩م ٠

١٨. حليه الاولياء وطبقات الاصفياء ــ ابو نعيم الاصفهانى ــ ط : مطبعة السعادة ٠ القاهرة ــ ١٩٣٢م٠

١٩. الحياة الروحية فى الإسلام ــ د/ محمد مصطفى حلمى ــ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ الطبعة الثانية ــ ١٩٨٤م ٠

٢٠. دائرة المعارف الإسلامية ــ إعداد وتحرير / إبراهيم زكى خورشيد وآخرون ــ ط الشعب ــ القاهرة ٠

٢١. الرسالة القشيرية فى علم التصوف ــ لأبى القاسم بن عبد الكريم بن هوازن القشيرى ــ تحقيق الشيخ / زكريا الأنصارى ــ مطبوعات مكتبة ومطبعة محمد على صبيح وأولاده بميدان الأزهر ــ القاهرة ٠

٢٢. الرعاية لحقوق الله ــ المحاسبى ــ تحقيق د / عبد الحليم محمود ــ ط : دار المعارف ــ الطبعة الثانية

٢٣. شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ــ ابن العماد الحنبلى ــ ط دار إحياء التراث العربى ــ بيروت ــ لبنان ٠

٢٤. صحيح البخارى ــ دار ابن كثير ــ اليمامة ــ بيروت ــ ١٤٠٧هـ ــ ١٩٨٧م ٠

٢٥. صفة الصفوة ــ أبو الفرج بن الجوزى ــ ضبطها وكتب هوامشها/ إبراهيم رمضان ، سعيد اللحام ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ لبنان ــ الطبعة الأولى ــ ١٤٠٩هـ ــ ١٩٨٩م ٠

٢٦. الصوفية معتقداً أو مسلكاً ــ د/ صابر طعيمة ــ الطبعة الثانية ــ الرياض ــ ١٩٨٥م ٠

٢٧. طبقات الصوفية ــ أبو عبد الرحمن السلمى ــ تحقيق/ نور الدين شريبة ــ الناشر / مكتبة الخانجى بالقاهرة ــ ط مطبعة المدنى ــ الطبعة الثالثة ــ ١٤٠٦هـ ــ ١٩٨٦م ٠

٢٨. الفرق الإسلامية وأصولها الإيمانية ــ د/ عبد الفتاح أحمد فؤاد ــ الناشر / دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ــ الإسكندرية ٠

٢٩. الفيلسوف المسلم رينيه جينو أو عبد الواجد يحيى ـــ د/ عبد الحليم محمود ـــ مكتبة الأنجلو المصرية ـــ ط مطبعة لجنة البيان العربي ـــ القاهرة .

٣٠. كشف المحجوب ـــ الهجويري ـــ دراسة وترجمة وتعليق د/إسعاد عبد الهادى قنديل ـــ مراجعة د/ أمين عبد المجيد بدوى ـــ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـــ لجنة التعريف بالإسلام ـــ ط مطابع الأهرام التجارية ـــ قليوب ـــ مصر ـــ ١٤٢٤هـ ـــ ٢٠٠٤م .

٣١. اللمع لأبي نصر السراج الطوسي ـــ تحقيق د/ عبد الحليم محمود ، طه عبد الباقي سرور ـــ الناشر / دار الكتب الحديثة بمصر ، ومكتبة المثنى ببغداد ـــ ط مطبعة السعادة بمصر ـــ ١٣٨٠هـ ـــ ١٩٦٠م .

٣٢. مجموع فتاوى ابن تيمية ـــ الناشر / دار التقوى للنشر والتوزيع ـــ بلبيس ـــ الشرقية .

٣٣. مجموعة الرسائل والمسائل ـــ ابن تيمية ـــ دار الكتب العلمية ـــ بيروت ـــ لبنان ـــ الطبعة الأولى ـــ ١٤٠٣هـ ـــ ١٩٨٣م .

٣٤. مختصر الفتاوى المصرية ـــ ابن تيمية ـــ ط القاهرة ـــ ١٩٤٩م .

٣٥. مدارج السالكين بين إياك نعبد وإياك نستعين ـــ ابن القيم ـــ تحقيق/ محمد حامد الفقى ، محمد عبد الرحمن الطيب ـــ المكتبة التوفيقية ـــ القاهرة .

٣٦. مدخل إلى التصوف الإسلامي ـــ د/ أبو الوفا الغنيمي التفتازاني ـــ دار الثقافة للنشر والتوزيع ـــ الطبعة الثالثة .

٣٧. المدخل إلى التصوف الإسلامي ـــ محمود أبو الفيض المنوفى ـــ ط الدار القومية للطباعة والنشر .

٣٨. مروج الذهب ومعادن الجوهر ـــ المسعودى أبو الحسن على بن الحسين ـــ ط الأستاذ / محيى الدين عبد الحميد ـــ القاهرة ـــ ١٩٥٨م.

٣٩. معجم ألفاظ الصوفية ــ د/ حسن الشرقاوى ــ الناشر / مؤسسة مختار ــ القاهرة ــ الطبعة الأولى ــ ١٩٨٧م .

٤٠. معجم الفلاسفة ــ جورج طرابيشى ــ دار الطليعة للطباعة والنشر ــ بيروت ــ لبنان ــ الطبعة الأولى ــ مايو ١٩٨٧م .

٤١. المعجم الوجيز ــ مجمع اللغة العربية ــ ط صادرة عن وزارة التربية والتعليم المصرية ــ ١٤١٦هـ ــ ١٩٩٥م .

٤٢. معجم المؤلفين ــ عمر رضا كحالة ــ الناشر / مكتبة المثنى ــ بيروت ، ودار إحياء التراث العربى ــ بيروت .

٤٣. مقدمة ابن خلدون ــ للعلامة عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ــ دار إحياء التراث العربى ــ بيروت ــ لبنان .

٤٤. المنقذ من الضلال ــ للإمام الغزالى ــ مع أبحاث فى التصوف ودراسات عن الإمام الغزالى بقلم الدكتور / عبد الحليم محمود ــ الناشر / دار الكتب الحديثة ــ ط مطبعة حسان ــ القاهرة ــ الطبعة الثامنة ــ ١٣٩٤هـ ــ ١٩٧٤م .

٤٥. الموسوعة الصوفية ــ د/ عبد المنعم الحفنى ــ ط دار الرشاد ــ القاهرة ــ الطبعة الأولى ــ ١٤١٢هـ ــ ١٩٩٢م .

٤٦. الموسوعة الفلسفية ــ د/ عبد المنعم الحفنى ــ ط دار ابن زيدون ــ بيروت ــ ومكتبة مدبولى بالقاهرة ــ الطبعة الأولى .

٤٧. موسوعة المستشرقين ــ د/ عبد الرحمن بدوى ــ ط دار العلم للملايين .

٤٨. الموسوعة الميسرة فى الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ــ إشراف ومراجعة وتخطيط د/ مانع بن حماد الجهنى ــ الناشر/ دار الندوة العالمية ــ الرياض ــ الطبعة الرابعة ــ ١٤٢٠هـ .